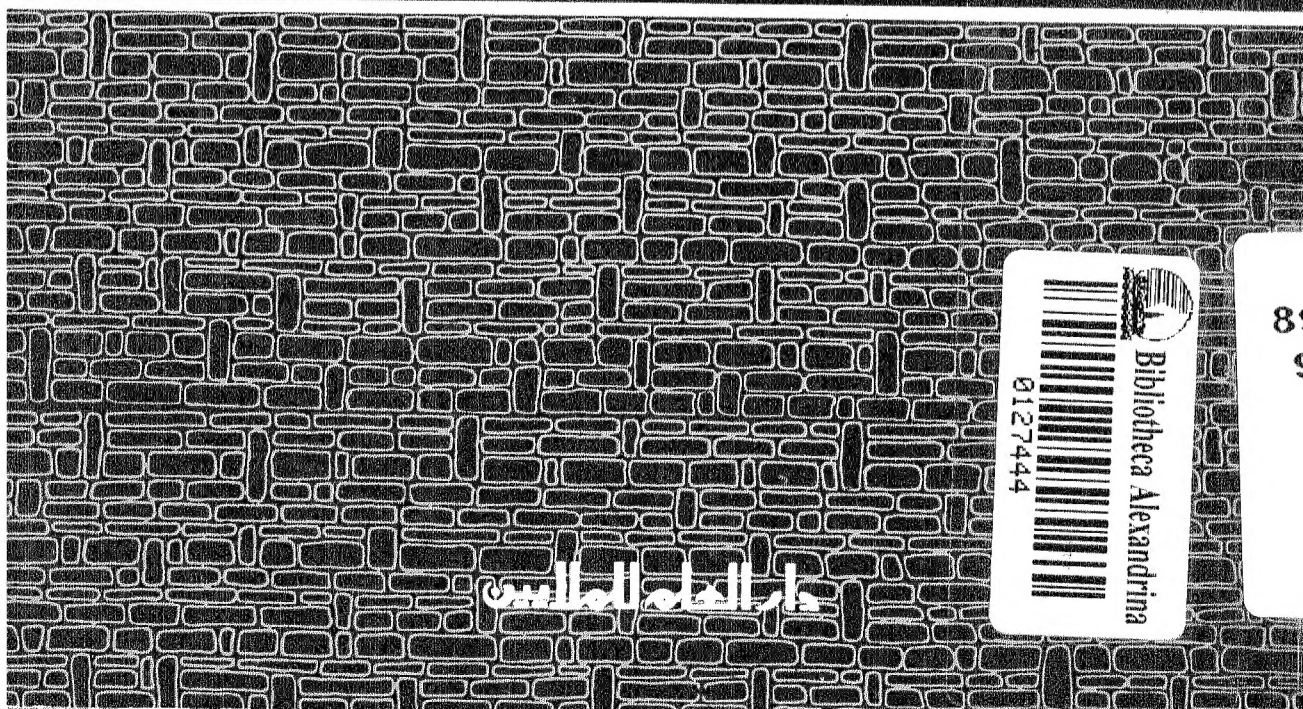


نواشير النهضة الأدبية



نباشیر النھضة الادبية

وليم الخازن
دكتوراه دولته في الآداب العربيه

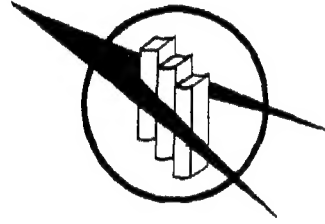
تأشير النقصه الأدبيه

دار العلم للملايين

دار العلم للملايين

مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر

شابع ماراليناس - خلف شركة الحلو
ص.ب. ١٨٥٠ - تلغون، ٣٠٤٤٥ - ٨٦٣٤٧٤
مشرقيا، ملايين - توكس، ٢٣١٦٦ - ملايين
بيروت - لبنان



جميع الحقوق محفوظة

لا يجوز نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب في أي شكل
من الأشكال أو بأية وسيلة من الوسائل - سواء التصويرية
أو الإلكترونية أم الميكانيكية، بما في ذلك النسخ الفوتوغرافي
والسجل على أي شكل أو وسائط أو حفظ المعلومات واسترجاعها
- دون إذن خطي من الناشر.

الطبعة الأولى

أيلول / سبتمبر ١٩٩٣

والله

إلى زملائي الأساتذة
وإخواني الطلبة،
لعلهم يجدون في كتابي هذا
محاولةً تدفعهم إلى قراءات
جديدة في تاريخ آدابنا
ومناقشة «ثوابته».

مقدمة

يعود اهتمامنا الجدّي بأدب النهضة العربيّة الحديثة إلى أواسط الستينيّات، يومَ بدأ أستاذنا النهضويّ الكبير الدكتور جبور عبد النور (١٩١٣ - ١٩٩١) يُشرف على أطروحتنا المعدّة في جامعة القديس يوسف بعنوان معالم الوطنيّة في الشعر اللبنانيّ الحديث لنيل شهادة الدكتوراه في اللغة العربيّة وآدابها التي استغرق عملنا فيها أكثر من إحدى عشرة سنة، بحيث ناقشناها عام ١٩٧٧. ثمّ وافقت دار المشرق على طبعتها عام ١٩٧٩ بعنوان الشعر والوطنيّة في لبنان والبلاد العربيّة. وقد عالج كتابنا هذا الآداب العربيّة في عصر النهضة، والمؤثّرات الغربيّة فيها، ومختلف تياراتها ومظاهرها الأدبيّة والفكريّة من مطلع القرن التاسع عشر حتّى عام ١٩٣٩.

وخلال تدريسنا الجامعيّ للآداب النهضويّة، الذي رافق عملنا في إعداد الأطروحة، اهتممنا بجذور النهضة العربيّة في لبنان وبعرض أعلامها في العصور العبّاسيّة، فأصدرنا عام ١٩٨٤ في منشورات الجامعة اللبنانية كتاباً بعنوان مظاهر الحضارة اللبنانيّة زمن الدولة العبّاسيّة.

أمّا الحقة الواقعة بين هاتين المرحلتين اللتين يتناولهما كتابانا المذكوران فلم نعبأ فيها كثيراً بملاحقة الآداب العربيّة وأخبارها، لانطباع كوّناه من أساتذتنا ومطالعائنا المحدودة، آنذاك، بأنّها مراحل لا تستحقّ كبير عناء، لما اتّسمت به من انحطاطٍ وتخلّفٍ وجمود^(١). يقول جرجي زيدان، مثلاً: «أمّا

(١) استثنينا العهد الأيوبي (١١٧٤ - ١٢٥٠) إذ لم تشمله صفة الانحطاط عند جمهور الدارسين لأنّه =

الآداب العربيّة، على الأجمال، فأصبحت في أحطّ أدوارها، وندر نبوغ العلماء والمفكرين أو المستنبيين فيها»^(١).

وختم الأب لويس شيخو كتابه «شعراء النصرانيّة بعد الإسلام» بقوله: «ينال هذا الكتاب من التاريخ الحقبة المشؤومة التي خيم فيها الجهل على البلاد الحزينة الناطقة بالضاد بعد انقيادها لزام المماليك ومن خلفهم من الحكّام الجوّرة أرباب السيف الدامي واليراع المحطّم، فيقع طرف القارىء فيها وقوعه على قفرٍ خالٍ وليلٍ مظلمٍ حالكٍ لا يُسمع فيه إلّا أنة المظلوم واستغاثة المضنى ولا يُرى إلّا لمعة السيف وشهية النار الآكلة...»^(٢).

وعالج الأستاذ بطرس البستاني (١٨٩٨ - ١٩٦٩) «عصر الانحطاط» في كتابه «أدباء العرب في الأندلس وعصر الانبعث» وحدّده على الشكل التالي: «يتبدىء باستيلاء هولاءكو على بغداد، وينتهي بدخول نابوليون الأوّل مصر (١٢٥٨ / ١٧٩٨)»^(٣). وحكم عليه حكماً قاطعاً: «عصر يصبغه الهول والذعر والفساد من جميع نواحيه، عصر تقتيل العلماء، وإتلاف الكتب، وتخريب المدارس... ولم يمعن المماليك في إرهاب العرب إلّا ليوطئوا العقاب للعثمانيين أبناء جلدتهم... واستعبدت الأفكار، وحطّمت الأفلام، وخُنقت حرّية الفرد والجماعة، فذلّ العرب وتفرّقت كلمتهم. وكان هذا العصر أسوأ العصور عليهم»^(٤).

ووافق على كلام بطرس البستاني أخوه كرم (١٨٨٨ - ١٩٦٦) في مقدّمته لكتاب «المجاني الحديثة عن مجاني الأب شيخو» (الجزء الخامس). فبعد أن

= زامن العصر العبّاسيّ الرابع (١٠٥٥ - ١٢٥٨)، وقد شجّع الدراسة والعلوم الإنسانيّة ومنها الآداب.

(١) تاريخ آداب اللغة العربيّة، ٢/ ٢٨٤.

(٢) الأب لويس شيخو: شعراء النصرانيّة بعد الإسلام، ص ٥١١. وربّما كانت هذه الخاتمة للأب المشرف على المطبعة الكاثوليكية التي طبعت الكتاب عام ١٩٢٤ كما يُفهم من آخرها، إلّا أنّ الأب لويس شيخو وافق عليها، بلا شكّ، وقد توفّي عام ١٩٢٧.

(٣) بطرس البستاني: أدباء العرب في الأندلس وعصر الانبعث، ص ٢٠٧.

(٤) المرجع نفسه، ص ٢١٢.

عَنُون القسم الثاني من مقدّمته «بالأدب المشرقيّ في الانحطاط»، ووصف العهد «بالعهد الكالح»، قرأنا له: «فانطفأت جذوة القرائح ومات الفنّ، وأرمد الوحي والابتكار، ودبّ الفساد في اللغة الفصحى بانتشار العناصر الأعجميّة، ونشرهم رطانتهم فيها. . . وهكذا خيم الانحطاط بروّقيه^(١) على العربيّة وآدابها، وانزوت الفصحى بنتاجها العبقريّ في بطون الطوامير^(٢) المُهمّلة، تنتظر أن يقيض لها الله تعالى يوماً تنبعث فيه من أكفانها»^(٣).

وهذا الجوّ، على علمنا، كان سائداً في مختلف البلاد العربيّة، ولا يزال مخيماً عليها، وإن ابتدأت تتخلّله انفراجات لا تزال تنتظر من يتعهدها ويوسّعها بمزيد من العناية قراءة وإطلاعاً وبحثاً.

وكان أننا، خلال محاضراتنا النهضويّة في الجامعة اللبنانيّة، أخذنا نوجّه نظرنا أكثر فأكثر إلى عهدي المماليك والعثمانيّين مُستوفين دراستنا للأداب النهضويّة، فلمسنا إنتاجاً ضخماً في مختلف ميادين العلوم الإنسانيّة، ورأينا أعلاماً نذروا أنفسهم للعلم والمعرفة، وحُفِظت عنهم المخطوطات المستفيضة المتعدّدة الأجزاء، والموسوعات الوافية، والأدب الجَمّ شعراً ونثراً، إلّا ما كان يكتنف تلك الآونة من رداءة الحكم والسياسة، ما لا يمنع الإنتاج وإن عرقله. بل ربّما أورت التجارب والمحن قرائح الأدباء والعلماء ورفدت مواهبهم، كما رأينا، مثلاً، في العصور العبّاسيّة حين ضعف الحكم المركزيّ في بغداد، وتعدّدت الولايات والممالك الخارجة عن سلطة الخليفة. وكثيراً ما أصابت تلك الآونة أحكامٌ تتعدّى زمانها ومعاييرها، منطلقةً إليها من جعبةٍ نقديةٍ عصريّةٍ حديثة.

وشجّعنا على المضيّ في سبيلنا آراء متفرّقة وكتب ابتدأت تنظر إلى عهدي المماليك والعثمانيّين نظرة جديدة، وتزفّ منها آثاراً تطيب لها النفوس. وقد اعتاد المؤرّخون الكبار، في بحثهم عن تاريخ بلادهم، أن يتوقّفوا عند

(١) يُقال ضرب رَوْقَه بمنزل كذا: نزل به وضرب خيمته.

(٢) جمع طامور وطومار: الصحيفة.

(٣) المجاني الحديثة عن مجاني الأب شيخو، ٢٣٠/٥.

الانجازات العظيمة والآثار المشرفة مُهملين ما يكتنفها من بشاعة وتقصير. وإنّما غايتنا وغاية الفنون الجميلة عموماً البحث عن مظاهر الجمال والروعة، وإتحاف الناس بها، مُخرجين الآلىء البرّاقة من أصدافها.

وحَصَرْنَا في لبنان دراستنا الموسومة بتباشير النهضة الأدبية لأنّنا أبناء البلد، نلّم بتاريخ وطننا ومكتنّفاته إلاماً نرتاح إليه، وهو الذي كان، على ضيق مساحته، رائداً كبيراً في بثّ أشعة الانبعاث والتطور إلى سائر البلاد العربية. ولا يعني هذا أنّنا نتنكر لما أسهمت به هذه البلاد، كما لا ننكر التفاعل بينها وبين بلدنا. ولا سيّما أنّ لبنان مشهور بانفتاحه على الشرق والغرب. فتطرّقنا، أحياناً، بما يسمح به طرحنا، إلى كبار أعلامها وساطع منائرهما. ثمّ إنّ تحديد الطرح في بلدٍ عربيٍّ واحدٍ يساعد على عمقه وشموله، ويقدم نموذجاً حيّاً عن سائر البلاد العربيّة، ذلك أنّ تطوّر اللغة والآداب فيها، وإن اختلفت وتيرته وسرعته، لم يختلف جوهره ومبادئه العامة؛ فاللغة واحدة والمال واحد. ومع زيادة الاتّصال اشتدّت اللحمة بحيث وصلت، مع الزمن، إلى جِسمٍ متناسقٍ متناغم، إلى ما تفرضه الفوارق القطرية.

أمّا المصادر والمراجع التي اعتمدناها، فسوف يرد أهمّها في المبحث الأوّل من الكتاب. وقد اعتنينا اعتناءً خاصاً بالتوثيق والدعم لكي نعزّز بحشنا بحوافز الاستمرارية والثبات والإجماع.

وأما المنهج الذي اتبعناه، فهو تاريخيّ انتقائيّ استقرايٌّ ينطلق متسلسلاً من الآثار نفسها، يستنتج خصائصها ويبرزها، مع التوكؤ الوافر على المنهج الاجتماعيّ، ذلك أنّ المجتمع هو الأرض التي نبتت فيها الأغراس المعتمدة.

وما كتابنا هذا سوى محاولة وإسهام في موضوع نرجو أن يكثر تداوله، فيستوفي حقّه ويشيع بين الناس، مستبدلاً بالنظرة السلفية إلى عهدي الممالك والعثمانيين نظرةً جديدةً أكثر صحّةً وأشدّ اعتدالاً.

وليم الخازن

الفصل الأول

مبدأ النهضة

ليس للنهضة العربيّة الحديثة حدود واضحة متّفق عليها، بل هي تيّار متّصل، بعيد الجذور، كثير الروافد، يختلف اتساعاً وتأثيراً وأهميّة في البلدان التي ورثت حضارة العرب، وانتظمتها لغة الضاد، وشكّلت العالم العربيّ الحديث. والنهضة الأدبيّة مرتبطة بالنهضة الاجتماعية والثقافيّة، وبمدى انفتاح البيئة التي تعيش فيها على سائر البيئات قريبةً وبعيدة. فالنهضة الأدبيّة وجه من وجوه الحضارة العربيّة وعنصر أساسي من عناصرها، تفاعلت معها وكانت رافداً من روافدها المتميّزة.

لم تنقطع الثقافة العربيّة انقطاعاً تاماً في أيّ عهد من العهود، بل ظلّت شمسها تتخلّل الغيوم المتلبّدة لتسطع في بؤر معيّنة ومؤسّسات مشعّة في العالم العربيّ، مثل جبل عامل، وجبل لبنان ومدنه، والمدن الشاميّة والعراقيّة والمصريّة، وكالآزهر في مصر، والنجف الأشرف في العراق، وجامعتي القيروان والزيتونة في تونس.

وأنشئت المدرسة المارونيّة برومية في القرن السادس عشر (١٥٨٤)، وعمّ نفعها الشرق والغرب. كما نشطت معاهد الاستشراق^(١) في كثير من البلدان الأوروبيّة لغاياتٍ سياسيّة واقتصاديّة وثقافيّة، فعانى منها المشرق سياسياً

(١) للتبسّط في الاستشراق، راجع كتاب نجيب العقيلي: المستشرقون في ثلاثة مجلّدات، طبعة ثالثة، مصر ١٩٦٤؛ وفؤاد أفرام البستاني: دائرة المعارف، ١١/١٢ - ٥٠.

راقتصادياً، وأفاد ثقافياً وحضارياً. وبذلك، بدا لنا أن نقول: إنّ الرأي المتناقل يردّه الخلف عن السلف بأنّ عصر الانبعاث، أو اليقظة العربيّة، أو النهضة الحديثة، قامت مع حملة بونابرت على مصر (١٧٩٨) هو رأي يشوبه الكثير من التسرّع والإجحاف بحقّ القرون والمراحل السابقة لهذه الحملة، خصوصاً في لبنان.

نقول هذا غير غافلين عن تأثير جوّ السلطنة العثمانية السليبيّ، وحكمها المطلق المدّعى من الله، وظلمها وكتبها الحريات^(١)، واقتصار ثقافتها على الجندية وأنظمة الحكم. واللغة التركية تطعّمت بالعربية والفارسية لتقصيرها وصعوبة إتقانها بحيث توقّفت موهبة الأتراك، كما يقول البارون دو طوط^(٢) «في حدود القراءة والكتابة لصعوبة لغتهم ولطول الوقت اللازم لاستيعابها»^(٣).

أولاً: واحات ثقافية في ما عُرف بعصر الانحطاط

حيث إنّ التفاعل بين لبنان وسائر البلدان العربيّة قام منذ أقدم العصور، فلا غرو من أن تتأثّر نهضته بنهضة العالم العربيّ وتتفاعل معها. ولا بدّ، إذًا، من نظرة خارج لبنان نركّز فيها الإطار العام للأدب العربيّة في مرحلة دراستنا. إنّ العصر الذي وُسم بالانحطاط عرف، بخاصّة في أوّله، شعراء يستحقّون الذكر كالتلعفري (١١٩٨ - ١٢٧٧) والشاب الظريف

(١) من أسوأ ما عُهد عن بعض سلاطين العثمانيين تحريمهم الطباعة. فعندما وصل خبر الاختراع الجديد إلى الشرق، أصدر السلطان با يزيد الثاني مرسوماً بتاريخ ١٤٨٥ ينهى فيه رعاياه عن اتخاذ المطبوعات. وتبعه ابنه سليم الأول الذي جدّد أمر أبيه سنة ١٥١٥ (الأب لويس شيخو: تاريخ فن الطباعة في المشرق، مجلّة المشرق ١٩٠٠، ٣/ ١٧٤ - ١٧٥).

(٢) François Baron de Tott : جنرال فرنسي (١٧٣٣ - ١٧٩٣) ابن شريف مجريّ مهجّر. خدم السفير الفرنسيّ فرجين Vergennes في القسطنطينية مترجماً (١٧٥٧ - ١٧٦٣). عُيّن قنصلاً في القرم Crimée لدى التتر الذين حرّضهم على روسية (١٧٦٧). أعاد تنظيم الجيش التركي. أُنمّن الدفاع عن مضيق الدردنيل يوم هاجمه أورلوف (١٧٧٠)، وحصّنه (١٧٧٣ - ١٧٧٥). كُلف تفتيش أسكلة الشرق (١٧٧٦). مارشال (١٧٨١). حاكم دوي Douai المدينة الصناعية الفرنسية (١٧٥٧). هاجر إلى المجر (١٧٩٠). تشكّل مذكراته عن الترك والتتر (أربعة أجزاء، ١٧٨٤) مصدراً مهماً لتاريخ تركية (موسوعة لاروس الكبيرة، باريس ١٩٦٤، ١٠/ ٣٩٥).

F. Baron de Tott: Mémoires du Baron de Tott sur les Turcs et les Tartares, p. 165.

(٣)

(١٢٦٣ - ١٢٨٩) والبوصيري (١٢١٢ - ١٢٩٦) وابن الوردى (١٢٨٩ - ١٣٤٨) وصفي الدين الجلي (١٢٧٨ - ١٣٤٩) وابن نباتة المصري (١٢٨٧ - ١٣٦٦). وعرف هذا العصر منشئين ومؤلفين كباراً في اللغة والآداب والتاريخ والعلوم، كابن مالك (١٢٠٣ - ١٢٧٤) صاحب «الألفية»، وابن هشام (١٣٠٩ - ١٣٦٠) صاحب «قَطْرَ النَّدى وَبَلَّ الصَّدَى» و«مُغْنِي اللَّيْبِ عَنْ كُتُبِ الْأَعْرَابِ» وغيرهما، وابن آجروم^(١) (١٣٢٣ - ...) الذي غلب عليه اسم «أَجْرُومِيَّة»، وابن منظور (١٢٣٢ - ١٣١١) صاحب «لسان العرب»، والفيروزبادي (١٣٢٩ - ١٤١٥) وله «القاموس المحيط»، وابن خلكان (١٢١١ - ١٢٨٢) صاحب «وفيات الأعيان»، والنويري (١٢٧٨ - ١٣٣٢) وكتابه «نهاية الأرب في فنون الأدب»، وابن خلدون (١٣٣٢ - ١٤٠٦) صاحب «المقدمة» و«التاريخ» المشهورين، والدِّمِيرِي (١٣٤١ - ١٤٠٥) صاحب كتاب «حياة الحيوان الكبرى»، والقلقشندي (١٣٥٥ - ١٤١٨) صاحب «صبح الأعشى في صناعة الإنشا»، وتقي الدين المقرئ (١٣٦٤ - ١٤٤١) صاحب «الخطط» في تاريخ مصر وأحوالها، والإبشي (١٣٨٨ - ١٤٤٦) صاحب «المستطرف في كل فن مستظرف»، وحاجي خليفة (١٦٠٨ - ١٦٥٧) وله «كشف الظنون» وهو معجم لأسماء المصنفات العربية مرتبة على الألفبائية.

وما ذكرناه، هنا، غيُض من فيض يدلّ على أنّ عصر الانحطاط أو الانحدار لا يزال ينتظر من يُعطيه حقّه ويضعه في المرتبة التي تليق به ضمن التراث العربيّ، ومن خلال المعايير والأوضاع والأنماط السائدة في عهده المختلفة: «فكلُّ دعوة، مهما كان ابتداءها أو غرضها الأخير عاماً، شاملاً لجميع النوع الإنسانيّ، فإنّ نظرتها إلى الحياة والكون يجب أن تكون منطبقةً على خصائص البيئة التي تنشأ فيها وعلى استعدادها الروحيّ، فلا يمكنها أن تشدّ عن استعداد بيئتها إلّا إذا خرجت منها أو وُجّهت إلى غيرها المخالف لها»^(٢) ومهما خرج الأدب على البيئة يظلّ لها أثر كبير فيه. والعربيّ آنذاك

(١) آجروم كلمة بربرية تعني الفقير الصوفيّ.

(٢) باسل البرازي: نحو شموليّة سعادته، ٤١/١.

ممزّق بين حليفين «ممثل الدين ومالك الأرض»، فانطبع «بحبّ المآسي والعشيق المرضي للحزن، بالخوف من الفرح، بنوع من الميل لتحطيم الذات، بإحساس الذنب، بتقييم سفلوي للذات، وبقبول تلذّي للظلم والرضى بالألم، مع تمرّد قليل وفورات بسيطة وعابرة... فظهرت القدسيّة التاريخيّة للموت والحزن. جذورها في الظلم، في الإحساس به، في الشعور بالمصيبة الجماعيّة (دينيّاً واجتماعيّاً). لقد غرسوا الكآبة ورضعوها، خلقوها ثمّ عبدوها في البكاء والعيول»^(١).

وممن أعادوا النظر في هذا العصر، وقرأوا تراثه قراءةً شخصيّةً جديدةً الدكتور بكري أمين الذي كان له فيه آراء لافتة نذكر منها قوله: «الظاهرة البارزة الأولى في تاريخ الأدب العربيّ عموماً، والعصرين المملوكيّ والعثمانيّ خصوصاً، أنّ موكب الشعر لم يتوقّف أو ينقطع على الرغم من تغيّر الأوضاع السياسيّة، وتبدّل الأحوال الاجتماعيّة، وتبايّن الجواء الفكريّة والثقافيّة بين مختلف الأمصار والعصور... ولو فتحنّا كتاباً تعرّض لذكر بعض شعراء تلك الأزمنة «كخريدة القصر» للعماد الأصفهاني، أو «خزانة الأدب» لابن حجة الحمويّ، أو «خلاصة الأثر» للمحبّي، أو «سلك الدرر» لمحمد المُرادي، ونظرنا في ما احتوى عليه كلّ منها من أسماء الشعراء، لانتابنا العجب لأنّ كلّاً منها يطالعنا بأسماء لا تكاد تُحصى... إنّ معظم ما خلف شعراء العصر السلجوقيّ والفاطميّ والأيوبيّ والعثمانيّ لا يزال مخطوطاً، وأكثر هذه المخطوطات متربّعة على رفوف مكتبات الغرب أو الشرق، وبعضها ضائع أو مفقود... ولا نبالغ إذا قلنا إنّ المؤلّفات التي صدرت في العصر المملوكيّ بلغت عشرات الآلاف، وحسبنا دليلاً أن بعض العلماء عُرِف عنه أنّه ألف مئات من الكتب كالسيوطي وابن تيميّة»^(٢).

ونزيد على لفظة الدكتور بكري شيخ أمين المعبّرة موضحين ومكمّلين، فنذكر أنّ تمام عنوان كتاب محمد أمين بن فضل الله المُحبّي الدمشقيّ

(١) علي زيعور: التحليل النفسيّ والإنسانيّ للذات العربيّة، ٤٨/٣.

(٢) بكري شيخ أمين: مطالعات في الشعر المملوكيّ والعثمانيّ، ص ٥٨، ٧٩، ٨٠، ٨٢.

(١٦٥١ - ١٦٩٩) هو «خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر»، وهو سفر كبير في أربعة أجزاء. وتمام عنوان كتاب مفتي دمشق محمد خليل المرادي (١٧٦٠ - ١٧٩١) هو «سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر» وهو في أربعة أجزاء أيضاً. ومن المصنّفات الواسعة المهمّة التي لم يذكرها شيخ أمين في شواهد كتاب شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السّخاوي المصري (١٤٢٧ - ١٤٩٧) «الضوء اللامع لأهل القرن التاسع» وهو في عشرة أجزاء، وكتابان لنجم الدين محمد الغزيّ الدمشقي (ت ١٦٥١) هما «الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة» في ثلاثة أجزاء، و«لطف السمر وقطف الثمر من تراجم أعيان الطبقة الأولى من القرن الحادي عشر».

وفي الدراسات الحديثة تحتلّ أطروحة محمد عيسى قنديل «الشعر العربيّ في العصر المملوكيّ الثاني» مكاناً متميّزاً من حيث معالجتها المتكاملة ونظرتها الشاملة لأحوال العصر وشعره.

ويعزّز هذا العصر أن قد تكامل فيه من الأدب الشعبيّ «خيال الظل»^(١) سابق السينما، و«سيرة بني هلال»، و«سيرة عنتر» التي تكاملت في مصر منذ القرن الرابع عشر تقريباً^(٢)، و«ألف ليلة وليلة» في مصر والعراق والشام خصوصاً. وما أصلها الذي ذكره النديم في فهرسته «هزار أفسانة» (ألف خرافة) سوى نزر يسير منها. وقد اهتمّ بها الغرب قبل الشرق، وترجمها إلى لغاته، واستوحى منها الأخيلة المشرقيّة والموسيقى الرائعة^(٣).

ومن الدراسات الرصينة الوافية في البلاد العربيّة، والتي نهضت حديثاً لتعيد إلى تلك الآونة مكانتها الحقيقيّة في تاريخ الآداب العربيّة، الكتاب المعبر في جزأيه للدكتور محمد زغلول سلام بعنوان: «الأدب في العصر المملوكي»،

(١) عالج المحامي فاروق سعد «خيال الظلّ العربيّ» في أطروحة مهمّة بجامعة القدّيس يوسف، ١٩٨٣؛ وفي «ملحق النهار»، العدد ٢١، السبت أوّل آب ١٩٩٢، ص ١٠ - ١٣. وسماه العرب أيضاً: خيال الإزار، خيال الستارة، طيف الخيال، مسرح العرائس.

(٢) الموسوعة العربيّة الميسرة، ص ١٠٥٠.

(٣) المرجع نفسه، ص ٢٠٣.

إلى جانب كتاب بكري شيخ أمين حول الشعر في العهدين المملوكي والعثماني^(١). كما تجدر إضافة بعض المصادر القديمة المطبوعة مثل «مطالع البدور في منازل السرور» لعلي بن عبد الله البهائي الغزولي الدمشقي (ت ١٤١٢)، و«بدائع الزهور في وقائع الدهور» لابن إياس المصري (١٤٤٨ - ١٥٢٤).

ولم يرَ المستشرقون والنقاد المتطوِّرون غضاضةً أو حطاً من قيمة الآثار الشعبيّة في شذوذها عن قواعد اللغة العربيّة الفصيحة. والنقد اللاحق لعهدي المماليك والعثمانيين، وخصوصاً الحديث منه، أصدر أحكامه القاطعة على هذين العهدين من وراء كوابح دينيّة وقوميّة عربيّة ملتزمة وموجّهة، تحذّر من استعمال اللغة العاميّة، وتعدّ كلّ تعبير عاميّ أو قريب منه سطحياً سخيلاً مبتذلاً شاذاً مارقاً^(٢).

وقامت، اليوم، نظرات حديثة مستقبلية، بعيدة عن كل خلفيّة دينيّة أو سياسيّة، بل يمكن اعتبارها مثاليّة، ترى مستقبل الآداب العربيّة بالسنة الشعوب المختلفة الناطقة، عفويّاً، بلغة الحياة اليوميّة. ومن أهل هذه الآراء عندنا الشاعران الشهيران سعيد عقل (١٩١٢ - ...)، ويوسف الخال (١٩١٧ - ١٩٨٧)، والناقد المعروف عصام محفوظ (١٩٣٩ - ...) الذي يستهجن استعمال الفصحى في الحوار القصصيّ أو المسرحيّ، ويعتبره «خيانة للواقع وللفنّ المسرحيّ العربيّ». وقد طالب «بالتضحية باللغة الفصحى شهيدة المسرح». كما أنّ لمحفوظ شعراً عاميّاً إلى جانب الكثير من الفصحى^(٣). وهل يقلّل من قيمة الأدب العاميّ، وخصوصاً الشعر الشعبيّ اللبناني، كونه باللغة المحكيّة؟ ألا يشكّل أتباعه وقادروه الجمهور الأوسع؟

ويبقى علينا تمييز يفرض نفسه بين عهدي المماليك والعثمانيين، وهو يرجّح كفة المماليك أدبيّاً وفنياً وعلمياً لأسباب أهمّها اعتماد المماليك على

(١) عنوان كتابه «مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني»، كما مرّ بنا.

(٢) مثلاً كتاب قضايا ومشكلات لغويّة، تأليف أحمد عبد الغفور عطار، مكيّة المكرّمة ١٩٩٠.

(٣) عصام الحوراني: مسرد لأدباء من قضاءي مرجعيون وحاصبيا، ص ٥٩١ - ٦٠٨.

العنصر العربيّ خصوصاً، لتفرّع أصولهم الغربية، وقيامهم على أرض عربيّة؛ واعتماد العثمانيّين اللغة التركيّة، واختلاف مواطنهم. وقد التزم هذا التمييز حتّى الذين تبنّوا مصطلح «الانحطاط» لتلك العهود كالأب لويس شيخو اليسوعي^(١)، والأستاذ بطرس البستاني^(٢)، وقبلهما جرجي زيدان^(٣).

وبعد كل التآليف والآراء التي ذكرنا، والتي تجنّبت تسمية عهديّ المماليك والعثمانيّين بأسماء تغلق عليهما كلّ باب يتسرّب منه الضوء، إضافة إلى مؤلّفات وآراء كثيرة أغفلناها، ككتاب محمود رزق سليم «عصر سلاطين المماليك» المطبوع بمصر في ثمانية أجزاء كبيرة، والمحتوي على مختارات وتعليق وشروح، وكتّابي الدكتورين محمد كامل حسين، وعبد اللطيف حمزة^(٤)؛ بعد كلّ هذا، ألا يستحقّ ذاك العهد الطويل أن يتلبّس بتسمية جديدة فيغدو «عهد المماليك والعثمانيّين»، لا عهد الانحطاط، والانحدار، والظلمات، وما إليها؟

ثانياً: جبل لبنان والسواحل والمدن

١ - الجبل

تمتّع جبل لبنان بحريّة ما عرفتها سواحله: «فعدا صعوبة السيطرة على الجبليّين عموماً، فإنّ الاستعباد التركيّ الذي انتظم الساحل اللبنانيّ بأكمله توقّف عند أوّل صخرة وأوّل مفازة من مفاوز الجبل الذي حافظ أهله على

(١) كتب الأب شيخو: «منذ استولت تركية على البلاد الناطقة بالضاد في العشر الثاني من القرن السادس عشر، أصيبت الآداب العربيّة بضربة أليمة» (شعراء النصرانيّة بعد الإسلام، ٤/٤٥٥).

(٢) أدباء العرب، ٣/٢١٠ - ٢١١. وراجع أيضاً محمد عيسى قنديل: الشعر العربيّ في العصر المملوكي الثاني، ص ٢ وما بعدها.

(٣) تاريخ آداب اللغة العربيّة، ٣/٢٨٣ - ٢٨٤.

(٤) محمد زغلول سلام: الأدب في العصر المملوكي، ١/٦.

استقلالهم وتقاليدهم، وعلى ذكرى أميرهم العظيم فخر الدين»^(١). وحافظ المسيحيون وجيرانهم الدروز فيه على الاتحاد التام، والعلاقات الاجتماعية الممتازة^(٢).

وقبل إنشاء المدرسة المارونية بقرون، كان اللبناني يختلج شعوراً وافتتافاً بما حباه الله من طيب الجو، وجمال الطبيعة، وتوفّر السليقة. قال صلاح لبكي (١٩٠٦ - ١٩٥٥) في كتابه «لبنان الشاعر»: «إنّ لفي طبيعة لبنان من التوازن والاتساق والجمال ما يفيض بعضه على النفوس ويحرك القلوب. لقد قام منذ أبعد العصور بين اللبنانيين وطبيعة بلادهم صداقة حميمة... هي تغدق وتشعّ وتلوّن، وهم يثّون ويفزعون إليها ويحنّون ويعبدون. فترتفع القلوب أنغاماً وتنطلق العقول استنطاقاً عن المكنونات والبواعث والعلل»^(٣).

وفي شمال لبنان حيث ظلّت السريانيّة مهيمنة حتى القرن السابع عشر كان تأثر اللبناني المارونيّ حاسماً بالأناشيد والمذائح السريانيّة القريبة من النفوس بأنغامها الموقّعة، والتي كانت تُنشد في الكنائس. وأبرزها الأفراميات ذات السبعة المقاطع، والبعقوبيّات ذات الاثني عشر مقطعاً. وإن تكن هذه الأنغام غريبة عن بحور الخليل ومرتبطة بالتراث الآرامي، فإنّ النظم عليها جاء أحياناً باللغة العربيّة المحكيّة، آنذاك، في جبل لبنان^(٤).

وفي ظلّنا أن الدكتور خليل حاوي (١٩١٩ - ١٩٨٢) حين أكّد بارتياح أن محاولات النصاري اللبنانيين في التعبير الأدبيّ العربيّ «لم يتمّ قبل القرن الخامس عشر»^(٥)، كان في يقينه إنتاج تلاميذ المدرسة المارونية (١٥٨٤)،

(١) De Tott: Mémoires, P. 22.

(٢) ركّز توفيق توما في كتابه المهمّ الريفيون والمؤسّسات الإقطاعيّة عند الدروز والموارنة في لبنان من القرن السابع عشر حتى ١٩١٤، الصادر في منشورات الجامعة اللبنانيّة بالفرنسيّة عام ١٩٨٦ (١/٤٧ - ٥٦)، على العلاقات المتميّزة بين الدروز والموارنة، وعلى مؤسّسي الوحدة الدرزيّة - المارونيّة. وهو بحث جدير بالمراجعة.

(٣) صلاح لبكي: لبنان الشاعر، المجموعة الثريّة، ص ١٣٣ - ١٣٤.

(٤) بطرس الجميل: زجلّيات جبرائيل ابن القلاعي، ص ٦٠ - ٦٢.

(٥) خليل حاوي: جبران خليل جبران، ص ٣٠.

وجبرائيل ابن القلاعي (ت ١٥١٦) في القرن السادس عشر وليس الخامس عشر. قال جبران مسعود: «النهضة هي كذلك بنت لبنان، نهلت من روحه وترعرعت بهدية، واطمأنت على ساعده، فكان لها نعم الأب، حضنها يوم بسمت لطلعتها دنياه، منذ القرن السادس عشر، وسهر عليها حتى استقام عودها، واستمرّ يتعهد سعيها في أرضه حيناً وفي دُني الاغتراب حيناً»^(١). ويتحدّث مارون عبّود عن تلقّف اللبنانيّ للفصحى وقابليّته للتمرّس بها سليمةً قبل سائر الأقطار العربيّة، فيقول: «قابلت لهجة لبنان بلهجات الأقطار الأخرى فوجدت لغتنا العاميّة أقرب إلى الفصحى من جميعها»^(٢).

ومن أبرز الممثّلين للشعر اللبنانيّ وأدبه، آنذاك، الأمير سيف الدين يحيى التنوخي^(٣) «الشاعر الذي تخطّى عصره»^(٤). والتنوخيّون الدروز، عموماً، كانوا من السّباقين إلى النهضة الفكرية، وإلى الشعر الروحيّ الذي يلامس تصوّف ويمتزج به أحياناً. ومذهبهم الدرزيّ، القائم على العقل والروح، يقرب، من جهة، من الصوفيّة فيطرّد في جوّها؛ وتقف التقيّة حائلاً بينه وبين الانتشار في سائر الملل والطوائف، من جهة أخرى. يشهد على ذلك ما رحنا نطلع عليه من دراسات في هذا الموضوع لأمثال عجاج نويهض^(٥)، وعارف أبو شقرا^(٦)، وفؤاد أبو زكي، وقبلهم تاريخ ابن سباط... كتب أبو زكي: «في خضمّ الظلام الفكريّ المحلولك، شَعّ نور في لبنان الوسيط في إمارة الغرب التنوخيّة التي بقي الشعر مزدهراً فيها طيلة مدّة حكم أمرائها»^(٧).

(١) جبران مسعود: لبنان والنهضة العربيّة الحديثة، ص ١١.

(٢) مارون عبّود: صقر لبنان، ص ٦٦.

(٣) وُلد في عُبّيه عام ١٣٨٧، وتوفّي عام ١٤٥٩. تجلّد عن حياته وأعماله وزهده وتقواه في تاريخ الدروز لابن سباط، ص ٢١-٢٣؛ وفي التنوخيّون لنديم نايف حمزة، ص ١٩٤-١٩٨؛ وفي ثلاثة أدباء روحانيّين من بني معروف لفؤاد أبو زكي، ص ٣٧-٤٦.

(٤) المرجع الأخير، ص ٤٦.

(٥) في كتابه التنوخي والشيخ الفاضل، مطابع دار الصحافة، بيروت ١٩٦٦.

(٦) في كتابه ثلاثة علماء من شيوخ بني معروف، دار الغد، بيروت، طبعة أولى ١٩٥٧.

(٧) فؤاد أبو زكي: ثلاثة أدباء روحانيّين من بني معروف، ص ٤٥.

ونقل الكاتب نفسه عن ابن سباط قوله عن الأمير سيف الدين يحيى التنوخي إنه «فات الأولين والأخيرين في شعره»^(١).

وللتمثيل على شعره نذكر شاهدين: الأول من المرحلة الأولى التي انطبعت باللهو والغزل. والثاني من مرحلة الارتداد إلى الدين والروح والمسلك القويم. جاء في مطلع قصيدة «باح الفؤاد» الغزلية المؤلفة من ثمانية وستين بيتاً:

وَنَمَّ دَمْعِي بِمَا عِنْدِي مِنَ الْأَلَمِ	بَاحَ الْفُؤَادُ بِسِرٍّ غَيْرِ مُنْكَتِمٍ
وَقَالَ إِنَّكَ فِي الدَّعْوَى لَمُتَّهِبِي	وَرُحْتُ أَشْكُو لِمَنْ أَهْوَى فَعَارَضَنِي
مَا فَاضَتْ الْعَيْنُ فِي يَوْمِ النَّوَى بِدَمٍ	فَقُلْتُ لَوْ أَنَّي قَدْ كُنْتُ مُدْعِياً
كَمَا تَمِيلُ غُصُونُ الْبَايِ بِالنَّسَمِ	وَلَا تَمَائِلْتُ مِنْ ذِكْرَاكُمُ طَرَباً
مِنْ اللَّقَاءِ وَمَحْضُولِي عَلَى عَدَمِ	وَلَا قَضَيْتُ بِكَ الْأَيَّامَ فِي أَمَلٍ
حَرَى وَلَا زَالَ مَنِي الْجِسْمُ بِالسَّقَمِ	وَلَا تَنَفَّسْتُ بِالصُّعْدَاءِ مِنْ كَبِدٍ
بِمُقْلَةٍ كُحِلَتْ بِالدَّمْعِ لَمْ تَنْمِ (٢)	وَلَا قَضَيْتُ اللَّيَالِي فِيكَ مَفْتَكِراً

ومن النهج الروحي قصيدة «الزهد» التي يتحدث فيها عن مجرى حياته بين الجهل والعقل، وقوامها واحد وخمسون بيتاً:

عَسِيرٌ مَعَ الْعَمْرِ الْقَصِيرِ إِلَى الْمَجْدِ	بُلُوغُ مَدَى الْغَايَاتِ بِالطَّلَبِ الْجَدِّ
يَكُونُ جَدِيراً بِالتَّرْدِي عَنْ الْقَصْدِ	وَأِنْ يَسْتَوَانَ طَالِبٌ عَنْ مَرَامِهِ
يُجَاوِزُ بِالسَّيْرِ الْهُوَيْنَا مَعَ الْبُعْدِ	وَهَلْ يَبْلُغُ السَّاعِي الْمَرَامَ وَكَمْ عَسَى
جَرَتْ حَلْبَةُ الْأَيَّامِ بِالْحَثِّ وَالْكَدِّ	وَمِنْ دُونِهِ الْأَقْدَارُ جَوَالَةً وَقَدْ
تَصَرُّمُ أَيَّامٍ تَوَلَّتْ بِلَا رَدِّ	وَأِنْ فَاتَ جَوَالَتِ الْمَقَادِيرِ لَمْ يُفِدْ

(١) المرجع نفسه، ص ٤٦ عن ابن سباط: تاريخ الدروز، ص ٢٢.

ويطيب لنا أن نلاحظ أننا في دراستنا كلاً من أدباء الطوائف اللبنانية المختلفة اعتمدنا، خصوصاً، المراجع العائدة لأبناء طوائفهم. ذلك أننا نعتقد مخلصين أن خير من يدرس شخصيات طائفة معينة وآراءها ومعتقداتها هم أبناءها أنفسهم لأنهم يحيون جوها وأعرافها وعقائدها. وتجنب بذلك تهمة التحيز الطائفي الدميم.

(٢) المرجع نفسه، ص ٥١.

عزائمُهُ بالنَّقْصِ راجعةٌ بِهِ وأيامُهُ بالعمْرِ رائحةٌ تَغْدِي
كأنَّ لِيالينا وأيامنا غَدَتْ تسوقُ بنا سَوَقَ الْمُضْمِرَةِ الجُرْدِ
لَقَدْ فَازَ مَنْ أَلْجَا إِلَى اللَّهِ أَمْرُهُ وأَقْبَلَ نحوَ الحقِّ فِي الصَّدْرِ والوَرْدِ^(١)

إنَّ المتمعَّن في شعر الأمير سيف الدين التنوخي يرى فيه الجوّ العام المهيمن على المذهب الدرزيّ وأتباعه آنذاك، ومنه التقشُّف والتضرُّع والابتهال والصبر وجهاد النفس والقضاء والقدر والحكمة. وأمّا من ناحية البنية الشعرية فشعره سهل واضح، سليم اللغة والأسلوب إجمالاً «يُذكرُ بشعر النهضة العربيّة»^(٢)، إلّا أنّه قد يلامس بعفويّته وضروراته الشعرية الأخطاء الشائعة، كاستعماله «مفتكراً» في البيت السابع من قصيدته «باح الفؤاد». كما لا يخلو شعره من الأخطاء النحويّة، إذ لم يجزم جواب الشرط «يكون» في البيت الثاني من قصيدة «الزهد»؛ واستعمل «تغدي» بدل «تغدو» في البيت السادس من القصيدة نفسها. وإنَّ أجاز لنفسه ذلك، فهو غير مقبول عند أهل العروض وجمهور اللغويين.

وقد يكون مفيداً ذكرُ شاعرٍ تنوخيٍّ نبيهٍ آخر تُوفّي بعد الأمير سيف الدين يحيى التنوخي بقليل، وهو الشاعر شمس الدين بن الصايغ (ت ١٤٧٢) الذي قال يرثي الأمير سيف الدين عبد الخالق الثاني (١٤٤٨ - ١٤٦٩) في مطلع قصيدة طويلة:

قَفَّ بِالْدِّيَارِ وَحْيُهَا وَنَادِيهَا وَأَنْظَرُ إِلَى رَبْعِهَا الْعَالِي وَنَادِيهَا
أَمَّا الْمَعَالِي فَقَدْ دُكَّتْ مَبَانِيهَا مِنْ بَعْدِ مَا كَانَ سَيْفُ الدِّينِ بَانِيهَا
يَا عَبْدَ خَالِقْنَا قَدْ كُنْتَ رَاعِيهَا فَبَعْدَكَ الْيَوْمَ مَنْ أَضْحَى يُرَاعِيهَا
خَيْرُ الْعُلُومِ صَغِيرُ السَّنِّ حَاوِيهَا وَالْكُتُبُ مِنْهَا جَاهُ قَارِي وَحَاوِيهَا^(٣)

(١) فؤاد أبرزكي: ثلاثة أدباء روحانيين من بني معروف، ص ٦٧.

(٢) المرجع نفسه، ص ٤٦.

(٣) ابن سباط: تاريخ الدروز، ص ٦٧.

ولا يخفى ما في إيقاع هذا الشعر المنعم المناسب من مجازاة وصلاحيّة
لما عهد في بني معروف من نذب في مسيرة جماعيّة للرجال يوم الدفن،
خصوصاً إن يكن الميت شاباً أو صاحب عزّ وجاه.

ولابن الصايغ مراتٌ كثيرة في هذا الأمير الشاب، منها:

هَجَرْتُ الْحِمَى فَاعْتَبَرْتُ مِنْ بَعْدِكَ الْحِمَى	وَأَصْفَرُّ مِنْهُ بِأَنَّهُ وَالْأَرَايِكُ
وَأَمَّا جِنَانُ الْخُلْدِ فَهِيَ تَزْخُرُفَتْ	لَدَيْكَ وَإِشْتَاقَتْ لِقَاكَ الْمَلَايِكُ
وَمَا كُنْتُ أَهْوَى أَنْ أَرَاكَ مُفَارِقاً	يَقُلُّ اعْتِرَاضِي مَنْ تَوَلَّاكَ مَالِكُ ^(١)

ومنها أيضاً:

دَعَيْنِي اللَّوَمَ عَاذِلْتِي دَعَيْنِي	فَقَدْ أَصْبَحْتُ ذَا قَلْبٍ حَزِينِ
أَعْنُفُ فِي الْأَسَى وَالْأَلَمِ فِيهِ	وَمَا لِي فِي مُصَابِي مِنْ مُعِينِ
وَمَا نَوْحُ الْحَمَامِ عَلَى هُذَيْلٍ ^(٢)	كَنَّوْحِي فِي الدِّيَاجِي فَاعْذُرِينِي
وَبِي وَجْدٌ كَمِثْلِ نِسَاءِ عَلِيٍّ	مُفَجَّعَةٍ عَلَى فَقْدِ الْحُسَيْنِ
وَمَا زَالَتْ سِيَهَامُ يَدِ الرَّزَايَا	تُصِيبُ مَقَاتِلِي لِدُنُوِّ حَيْنِي ^(٣)

وشعره، عموماً، يُعَدُّ من الانطلاقات الرائدة، ويمتاز بموسيقاه وسهولته
وصدقه وسلامته اللغويّة والعروضيّة، إلى ما فيه من صناعة لفظيّة ومعنويّة
تجاري عصرها.

ومن الذين أثروا في الحركة الأدبيّة والفكريّة اللبنانيّة في عهد سيف الدين
يحيى التنوخي وبعده، الراهب الماروني جبرائيل ابن القلاعي المولود في لحفد
عام ١٤٤٧، والمتوفى مطراناً على الموارنة في جزيرة قبرس عام ١٥١٦^(٤).

(١) المرجع نفسه، ص ٦٨.

(٢) اسم رجل.

(٣) المرجع نفسه، ص ٦٨ - ٦٩.

(٤) للتوسع في حياته راجع: دائرة معارف فؤاد أفرام البستاني، ٤٦٤/٣ - ٤٦٦؛ وإسطفان
الدويهي: تاريخ الأزمنة، ص ٣٩٥.

درس جبرائيل عشرين سنة في جامعات رومية، وعاد منها عام ١٤٩٣ وقد أتقن ستة عشر علماً، إلى جانب منظوماته الزجلية التي تعدت الخمس والعشرين قصيدة من الشعر العامي، ومنها ما يربو على خمسة آلاف بيت. ومن خير زجلياته المدائح، ومن أشهر مدائحه «المديحة على جبل لبنان»، ومطلعها:

كَيْفَ الدُّهُورُ بَيَّتَغَيَّرَ وفيه العُقُولُ بَيَّتَحَيَّرَ
وَلَوْ مَا تَوَجَّدَ فِي الْأَسْطَرِ مَا كَانَ يَخِيرُ عَنْهُ إِنْسَانُ
وَلَكِنِ التَّوَارِيخُ بَيَّتَخَيَّرْنَا عَلَى مَا جَرَى بِمَوَاطِنِنَا
وَالَّذِي كَانُوا قَبْلَ مِنَّا سَكَّانَ فِي جَبَلِ لُبْنَانُ^(١)

قياساً على الأوزان العربية، تبدو هذه المديحة غير موزونة. أما إذا قسناها على أنغام الأفراميات السريانية فتظهر تامة الوزن والقافية، بهيجة الإيقاع.

وكان لابن القلاعي تلاميذ، منهم يوحنا الذي رافقه إلى قبرس، ثم غرق في البحر وهو في طريقه إلى القدس الشريف، فصنف ابن القلاعي مراثية يعدد فيها فضائله وعلومه ويمدح قداسته^(٢). ونظم عام ١٥٠٩ زجلية تنم على حنيه إلى وطنه لبنان، ومنها:

رَحَلْنَا لِلْغُرْبَةِ وَزَعَلَتْ نَفْسُنَا وَنَادَى بِنَا الشُّوقُ لِلْعَادَاتِ
أَطْفَالُ أَشْتَاقَتْ إِلَى أَطْفَالِ مِثْلِهِمْ وَغُيُوبُ الْمَشَايخِ سَكَبَتْ الدَّمْعَاتِ
وَأَتَذَكَّرُوا أَوْطَانَهُمْ وَأَهْلَ بِلَادِهِمْ وَأَشْعَلَ بِهِمِ الشُّوقُ بِالْعَبَرَاتِ
غُيَابُ اشْتَاقُوا وَالشُّوقُ زَايِدَا وَالشُّوقُ مِثْلُ النَّارِ بِالْغَابَاتِ^(٣)

ومع الإنشاد والتنغيم يستوي الشاذ ويستقيم الوزن.

ويعود الدكتور جبور عبد النور (١٩١٣ - ١٩٩١) بتاريخ الزجل اللبناني

(١) بطرس الجميل: زجليات جبرائيل ابن القلاعي، ص ١-ج.

(٢) إسطفان الدويهي: تاريخ الأزمنة، ص ٣٦٧.

(٣) المرجع السابق: ص هـ، و.

الى سليمان الإشلوحي في رثائه باللغة العربيّة العاميّة مدينة طرابلس واصفاً خرابها واحتراقها عندما فتحها السلطان قلاوون المملوكي (١٢٧٩ - ١٢٩٠) في نيسان ١٢٨٩^(١).

ويمثّل المطران جرمانوس فرحات^(٢) محطةً مهمّة في استعمال الأسلوب العربيّ الفصيح، وتألّف كتب القواعد لإقامة الألسنة الملتوية في أتباع ملته بنوع خاص. وكان له مئة وأربعة كتب كما يقول مارون عبّود^(٣). أمّا نهاد رزّوق فقد أحصى له ٢٥ مؤلفاً مطبوعاً و ٧٨ مخطوطاً بين ترجمة وتصحيح ولغة وأدب وشعر ودين وتاريخ^(٤). ولم يكن فرحات أوّل من ألف في علم النحو في الملة المسيحيّة السريانيّة إذ سبق أن طبع نصر الله شلق العاقوري كتاب «مبادئ العربيّة» في رومية عام ١٦٢٢^(٥). ووصف مارون عبّود جرمانوس فرحات بأنّه أوّل رواد الفصحى^(٦). وقال فيه نهاد رزّوق: «انبج فجر فرحات المؤلّف في أوائل القرن الثامن عشر الميلاديّ. فتألّقت كتبه فوق تخوم الجهل والتخلّف لتمدّ العقول وتغذّي النفوس بنورانيّة العلم والمعرفة، وتسهم مع معطيات قلة من أقلام العصر النابغة الجريئة في بعث مقوّمات النهضة الحديثة التي شملت سورية ولبنان وسواهما من الأقطار والبلدان»^(٧). وأقرّت له دائرة المعارف الإسلاميّة بريادة النهضة الأدبيّة التي توهّجت في البلاد العربيّة خلال القرن

(١) Jabbour Abdel - Nour: *Etude sur la poésie dialectale au Liban*, p. 18.

(٢) ولد جبرائيل فرحات في ٢٠ تشرين الأوّل ١٦٧٠ في محلة الصليبيّة من مدينة حلب، وتوفي في ١٠ تمّوز ١٧٣٢، وعاش معظم حياته في لبنان، وعمل وألّف فيه. من أساتذته تلميذ المدرسة المارونيّة بطرس التولاوي (١٦٥٨ - ١٧٤٦) (تجد بحثاً مطوّلاً عنه في مجلّة «المنارة»، السنة ٢٥، العددان الأوّل والثاني، ١٩٨٤، ص ٢٩١ - ٣١٨، بقلم الخوري نبيل الحاج) والشيخ سليمان النحويّ الحلبيّ.

(٣) مارون عبّود: رواد النهضة الحديثة، ص ٤٤.

(٤) نهاد رزّوق: جرمانوس فرحات، ص ٦٩ - ٨٧ و ٨٩ - ١٤٤.

(٥) P. Pierre Raphaël: *Le rôle du Collège Maronite Romain dans l'orientalisme aux XVII e. et XVIII e. s.*, pp. 97 - 98.

(٦) مارون عبّود: رواد النهضة الحديثة، ص ٤٢.

(٧) نهاد رزّوق: جرمانوس فرحات، ص ٦٧.

التاسع عشر، وذكرت أنه جمع حوله شلّة من الشعراء والعلماء على رأسهم نيقولاوس الصائغ (١٦٩٢ - ١٧٥٦) (١).

أما شعر فرحات فنمّثل عليه بمقطعة دينيّة في مريم العذراء، ومقطعة ثانية يظهر فيها نمط من الشعر كثرت المباهاة بإتقانه في مبتدأ النهضة ألا وهو «التسميط» أو «التشطير» الذي يعاقب على أبيات قصيدة مشهورة صدرًا لعجز وعجزاً لصدر.

قال في بشارة مريم عام ١٦٩٦ :

بُشْرَاكَ بُشْرَاكَ قَدْ أَذْنَاكُمُ النَّائِي	مُذْ أَوْمَضَ الْبَرْقُ مِنْ تَلْقَاءِ عِذْرَاءِ
فَالْجَوُّ مُنْبَجِسٌ بِالنُّورِ مَقْرُقُهُ	وَالْأَرْضُ قَدْ بَسَمَتْ عَنْ ثَغْرِ لَمِيَاءِ
قَدْ غَرَدَ الطَّائِرُ السَّرِيّ مِنْ طَرَبِ	لَمَّا رَأَى الْقُضْبَ تَرْقُصُ (٢) رَقْصَ هَيْفَاءِ
وَالرَّيْحُ تَكْتَبُ فَوْقَ الْمَاءِ أَنْمُلَهَا	سَطْرًا تُحَاكِئُهُ بَيْنَ الدُّرِّ وَالْمَاءِ
إِذْ لَاحَ شَمْسُ الْهُدَى فِي بُرْجِ طَالِعِهِ	بِشَارَةِ قَدَسَتْ أَرْحَامَ حَوَاءِ... (٣)

وهذا الشعر الدينيّ فتح جديد في الآداب العربيّة يطبّق فيه الشاعر أوزان الشعر العربيّ على موضوعات مسيحيّة خاصّة، وإن كان قد سبقه إلى هذا النمط الشعريّ سليمان بن حسن الغزيّ المتنصر في القرن الرابع عشر على الأرجح، فإنه لم يحظ من الشهرة ما حظي به شاعرنا (٤).

(١) Encycl. de l'Islam, II/814.

(٢) سَكَنَ الصَّادَ لَضُرُورَةِ شَعْرِيَّةٍ.

(٣) جرمانوس فرحات: ديوانه، ص ٤.

(٤) شيخو: شعراء النصرانيّة بعد الإسلام، ٤/٤٠٠/٤٢٠؛ و Encycl. de l'Islam, II/815. ومن شعر سليمان الغزيّ الذي وصف شيخو ديوانه بأنه «أَوَّلُ دِيَوَانٍ نَصْرَانِيٍّ بَحَثَ» (المرجع نفسه، ٤/٤٠٩):

أَنَا الَّذِي كُنْتُ أَوَّلَى أَنْ أَمُوتَ كَمَا	أَخْطَيْتُ دُونَ الْمَسِيحِ مَا بِهِ عَيْبُ
يَا رَبِّ أَثْبِتْ لَنَا نَعْمَاكَ فِيهِ فَمَا	لَنَا سِوَاهُ عَظِيمِ الْقَدْرِ مَطْلُوبُ
وَإِغْفِرْ لِمَنْ نَظَّمَ الْأَبْيَاتَ زَلَّتْهُ	فَلِئْلُمُهُ بِلِإِزَا عَيْنَيْهِ مَنْصُوبُ

(المرجع نفسه، ٤/٤٠٢).

وقال فرحات في مطلع تسميته لقصيدة ابن سينا (٩٨٠ - ١٠٣٧) العينية
عام ١٧١٣ :

هَبَطْتُ إِلَيْكَ مِنَ الْمَحَلِّ الْأَرْفَعِ نَفْسُ تَرَاءَتْ فِي وَشَاحٍ لَا يَعِي
دَقْتُ وَرَقْتُ جَوْهَرًا فَكَأَنَّهَا وَرَقَاءُ ذَاتُ تَعَزُّزٍ وَتَمْنَعِ
مَحْجُوبَةٌ عَنْ كُلِّ مُقْلَةٍ عَارِفٍ كَمَا وَكَيْفًا كَالْجِهَاتِ الْأَرْبَعِ
لَكِنْ قِوَاهَا كَيْفَ يُمَكِّنُ سِتْرُهَا وَهِيَ الَّتِي سَفَرَتْ وَلَمْ تَتَبَرَّعِ... (١)

ومع كلِّ اهتمام فرحات بقواعد اللغة العربيّة، فإنَّ ممارسته لكتابتها لم
تخلُ من الهفوات. ومع كلِّ ما نظم بقي في شعره عدد وافر من الجوازات.
وممَّن لفت إلى هذا الضعف الأب لويس شيخو، ومارون عبود، ودائرة المعارف
الإسلاميّة (٢).

ويحسن بنا أن نعطي مكانة متميِّزة في نهضتنا الأدبيّة الحديثة للتّيار
النّهضويّ الوافد من حلب (٣) وحمص على يد رَوَاد دانت لهم النهضة بكثير من
أسسها. نذكر من حلب بطرس التولاوي (١٦٥٨ - ١٧٤٦) العالم الكبير،
وجرمانوس فرحات، وعبد الله زاخر (١٦٨٠ - ١٧٤٨)، ونيقولاوس الصائغ،
ومؤسّسي الرهبانيّة اللبنانيّة الثلاثة: عبد الله قرألي (١٦٧٢ - ١٧٤٢) وجبرائيل
حَوّا (١٦٦٨ - ١٧٥٦) ويوسف البتن (ت ١٧١٤) (٤). ونذكر من حمص آل
اليازجي، وبطرس كرامة (١٧٧٤ - ١٨٥١). وعبرَ مارون عبود خير تعبير عن

(١) جرمانوس فرحات: ديوانه، ص ٢٧٤.

(٢) شعراء النصرانية بعد الإسلام، ٤٥٦/٤ - ٤٦٤؛ رَوَاد النهضة الحديثة، ص ٤٧؛ Encycl. de L'Islam, II/815.

(٣) كتب المستشرق كراتشكوفسكي Kratschkowsky (إغناطيوس ١٨٨٣ - ١٩٥١) في دائرة
المعارف الإسلاميّة: «Alep était l'une des rares villes arabes qui, après la conquête otto-
mane, avaient maintenu et développé, dans une certaine mesure, une tradition littéraire.
(Encycl. de l'Islam, II/814).

(٤) مجلة «المنازة»، السنة ٢٥، العددان الأول والثاني، ١٩٨٤، ص ٣٠٠؛ والآبائي بطرس فهد:
تاريخ الرهبانيّة اللبنانيّة، ١٣ - ٦/١.

استمرار شعلة المعرفة في لبنان إذ قال: «في أعماق الديورة وجوار الجوامع، بقي للعلم قيس كنار المجوس الدائمة»^(١). وجاء قول المؤلف نفسه «إنّ الفصحى سرت إلى لبنان من حلب التي كانت اللغة التركيّة تجري على ألسن معظم سكّانها»^(٢) مطابقاً لرأي الرحّالة فولني (١٧٥٧ - ١٨٢٠) الذي أقرّ بأهميّة حلب في انطلاق الدراسة العربيّة^(٣). ونبقي، مع ذلك، مكانة خاصّة لثلاث محطات رائدة في جبل لبنان وسواحل ومذنه، وفي المدرسة المارونيّة، وفي جبل عامل، حصّنت الفصحى، وأسهمت في تغذيتها وانتشارها.

٢ - السواحل والمدن اللبنانيّة

انتشرت اللغة العربيّة وآدابها في مدن الساحل وبعلبك قبل انتشارهما في مناجع الجبل^(٤)، ذلك أنّ الأمويّين والعباسيّين شجّعوا الهجرات العربيّة إلى مدن الساحل، وكان من أوسع هذه الهجرات وأفعّلها هجرة التبوخيّين^(٥) (أجداد الدروز). ومنهم، في النصف الأوّل من القرن الخامس عشر للميلاد، صالح بن يحيى (ت حوالي ١٤٤٦) صاحب «تاريخ بيروت». ورأينا أن نستدلّ على أسلوب الكتابة لدى أهل السواحل والمدن من تاريخه، إذ توفي قبل سنة تقريباً من ولادة جبرائيل ابن القلاعي (١٤٤٧ - ١٥١٦)، وهو من الطائفة الدرزيّة التي انتشرت، آنذاك، انتشاراً واسعاً في المنطقة الواقعة غربيّ جبل لبنان، ومنها بيروت، وأسلوب أهلها من حيث السلامة والبلاغة في منزلة متوسّطة بين كتابة المسيحيّين الناشئة وكتابة المسلمين المتقدّمة. قال ابن يحيى يذكر بيروت وأخبارها^(٦):

«بيروت مدينة قديمة جدّاً يُستدلّ على قدمها بعثق سورها ومع عتقه فهو

(١) مارون عبّود: رَواد النهضة الحديثة، ص ٣٣.

(٢) المرجع نفسه، ص ١٣٦.

(٣) Volney: Voyage en Egypte et en Syrie, p. 292.

(٤) وليّم الخازن: مظاهر الحضارة اللبنانيّة زمن الدولة العبّاسيّة، ص ٤٩ و ٥٣.

(٥) المرجع نفسه، ص ٢٨ (هامش ٩)، ٢٩، ٣٠؛ وصالح بن يحيى: تاريخ بيروت، ص ١٢ وما بعدها.

(٦) المرجع الأخير، ص ٨.

محدث عليها استخذوه (أي اتخذوه) الأولين من خرايب كانت مقدمة أقدم منه بمدد كثيرة لأننا نجد في السور المذكور قواعد من الرُخام وأعمدة كثيرة من الحجر المانع الذي قد تعب عليها الأولين في عَمَلِها وَجَلَّيْها ونفقوا عليها أموالهم فدل ذلك على أنها من خرايب قديمة كانت عظمة البناء جليلة المقدار فاستهانوها الذين جاؤوا بعدهم وجعلوها في السور المذكور مكان الحجارة التي لا قيمة لها لاستغنائهم عنها بكثرة أمثالها في الخرايب ودل ذلك على أن العماير الأوله كانت أعظم من الثانية» .

يكشف هذا النص المكتوب في النصف الأول من القرن الخامس عشر، على ما فيه من أخطاء لغوية، أسلوباً عربياً مقبولاً وواضحاً بالنسبة إلى الأساليب الركيكة المشوبة بالعامية واللكنات الغريبة في تلك الأثناء. ولا تصح مقابله بأساليب الكتاب الذين سبقوا انهيار بغداد، أو عاصروا النهضة الحديثة .

وكان من التلوخييين البحتريين، في القرنين الرابع عشر والخامس عشر، مفكرون وكتاب وشعراء جلهم أمراء، كالأمير ناصر الدين الحسين بن سعد الدين أمير الغرب المتوفى عام ١٣٥٠، والأمير شهاب الدين أحمد بن صالح بن الحسين المتوفى عام ١٣٨١، والأمير شرف الدين عيسى بن أحمد بن صالح المتوفى عام ١٤٢٣، والأمير جمال الدين عبد الله بن سليمان (١٤١٧ - ١٤٧٩) وهو أشهرهم .

ونكتفي للتمثيل على أدبهم . بمقطعة من قصيدة وصفية لناصر الدين الحسين أمر بأن تعلق على باب الحمام ببيروت :

وَحَمَامٌ يَرُوقُ الْعَيْنَ حَسَنًا	تَجِدُ ^(١) فِيهِ الْمَسْرَّةَ وَالنَّعِيمَ
يَرِيكَ الْمَاءُ يَسْرَحُ فَوْقَ دُرٍّ	تَزُولُ بِهِ لِمَنْظَرِهِ الْهُمُومُ
كَأَنَّ قِبَابَهُ وَالْحَمَامُ ^(٢) فِيهِ	سَمَاءٌ طَالَعَاتُ بِهَا نَجُومٌ . . . ^(٣)

(١) أثبت صاحب كتاب «التلوخيون» : «تحيط به» مكان تجد فيه، فأنقذ الوزن واللغة .

(٢) الحمام : إناء من فِضَّة كالكَأْس .

(٣) صالح بن يحيى : تاريخ بيروت، ص ١١٤ ؛ ونديم نايف حمزة : التلوخيون، ص ١٩٠ .

ومن غير الأمراء نختار محمد بن علي الغزي^(١)، وله مدائح في الأمير ناصر الدين الحسين بن سعد الدين، ومقامة في مدحه ومدح أقاربه تشتمل على نثر ونظم، يقول فيها: «وهل في الشام شام غير بروق سحاياه، أو يروق غير جمال كتبه وجميل كتايه، فالجد والجدوى وقف على سيفه وقلمه، والعفاف والتقوى من طباعه وشيمه، غالباً بأرايه الغنية عن الرايات، بالغاً بالآية غايات النهاية ونهاية الغايات، مع كتابة كالروض باكره من كفه وسمي^(٢) الغمام، وبلاغة تفعل بالعقول ما لا يفعله المدام».

ويتبع شعر مطلعته:

حَيَّا الْحَيَّا غَرْبَ بِيروٓتٍ وَمَنْ فِيهِ وجودُ كَفِّ ابْنِ سَعِدِ الدِّينِ يَكْفِيهِ
وَلَا غَدَتُ مَنْ يُغَادِيهِ الْمَنُونُ وَلَا خَلَّتْ مَغَانِيهِ يَوْمًا مِنْ مَغَانِيهِ
غَرْبُ غَدَا مَشْرِقًا لِلْجُودِ مَا بَرَحَتْ شَمْسُ الْمَكَارِمِ تُضْحِي فِي ضَوَائِحِهِ^(٣)

ولمحمد الغزي مخمس مدحي من مشطور الرجز يفتحه بالغزل والشكوى:

يَا حَادِيًا سَارَ ضُحًى بِالرُّكْبِ خَلَفَتْ جِسْمِي وَأَخَذَتْ قَلْبِي
فَقِفْ عَسَى أَنْظُرَ وَجْهَ حُبِّي يُقْنِعُنِي قَبْلَ حُلُولِ التُّرْبِ
تَرِيحُ^(٤) أَجَرَ الْمُسْتَهَامِ الصَّبِّ...^(٥)

(١) شمس الدين محمد بن علي بن محمد الغزي المتوفى عام ٧٦١ هـ/١٣٦٠ م. (المرجع الأخير، ص ١٨٩).

(٢) وسمي: أول مطر الربيع لأنه يسيم الأرض بالنبات.

(٣) صالح بن يحيى: تاريخ بيروت، ص ١١٨. وقد أثبت حاشية في أسفل الصفحة جاء فيها: «وكلما نكتبه لمحمد الغزي المذكور فهو نقلاً عن خطه وعندي منه ما يكتب في مجلد كبير ضخم الحجم». ونقل نبذة عن المقامة والأبيات نديم نايف حمزة في كتابه «التنوخيون»، ص ١٩٨ - ١٩٩.

(٤) ورد «تريح» مرفوعاً وحقه أن يكون مجزوماً.

(٥) صالح بن يحيى: تاريخ بيروت، ص ١١٩.

وتقدّم نتاج التنوحيين تقدّماً ملحوظاً في ما بعد بحيث ظهر، في آخر القرن السادس عشر والقرن السابع عشر، شعراء وكتاب لامسوا النهضة الأدبية، وكادوا يتفوّقون على كثير من مظاهرها. نذكر من هؤلاء الأدباء بعض من بقي أدبه مغموراً إلى حدّ كبير كابن سباط (ت ١٥٢٠)، والشيخ زين الدين عبد الغفار تقيّ الدين (ت ١٦١٤)، والشيخ حسين الميمساني (ت ١٦٢٦)، والشيخ علي فارس (ت ١٧٥٣). وإلى جانبهم علّمان بلغا في عهدهما شهرة واسعة، وهما الشيخ يوسف بن سعيد الكفرقوقي (ت ١٦١١)، والشيخ محمّد أبو هلال الملقّب بالفاضل (ت ١٦٤٠)^(١).

الشيخ يوسف بن سعيد الكفرقوقي^(٢)

نظم الكفرقوقي اثنتين وأربعين قصيدة، ومقطوعة واحدة^(٣). ولزم في شعره ما لا يلزم على طريقة أبي العلاء المعريّ (٩٧٣-١٠٥٧). وكان أدبه أدب الزهد والتقوى والورع والعفاف والطهارة والإخلاص والمحبة والوفاء والصبر والرضا والتسليم والمواعظ والحكم والأمثال والفلسفة^(٤). وهي موضوعات نابعة من البنية الذهنية لبني معروف الذين حاولوا دوماً المحافظة على الأعراف، والتحفظ في مجتمعات واسعة لجأوا إليها.

ومن التزامه المهارات الشعرية ما سُمّي لديه «معشّرات الحروف»، خصّ فيها كلّ حرف من حروف الهجاء بعشرة أبيات مع مقدّمات توافق حرف كل باب. ففي حرف التاء مثلاً:

«تُبّ إلى الله إن طلبت رضاه. تقرب إليه ودّع ما سواه. تبّلت لتلاوة كتابه المنزل. توّسل إلى كرمه بنبيّه المرسل. تابع أهل السنّة بالأفضل الأكمل. تماديك على المعاصي خذلان. تيهك في هواك موقع في الحرمان. تتابع

(١) فؤاد أبوزكي: ثلاثة أدباء روحانيين من بني معروف، ص ٩.

(٢) وُلِد وتوفّي في كفرقوق، وهي قرية في قضاء راشيا (٩١٥٣٠-١٦١١).

(٣) المرجع نفسه، ص ٩٣.

(٤) المرجع نفسه، ص ٩١.

سقطاتك ارتكاس وخسران. تبعات ذنوبك قائمة إلى النيران. تغافلك وتثاسيك
سبب لغضب الملك الديان.

- ١ - تَأْهَبُ لِيَوْمِ الْجَزَا وَالْمَمَاتِ
 - ٢ - تَنَاسَيْتَ عِرْضَكَ يَوْمَ الْحِسَابِ
 - ٣ - تَعَامَيْتَ عَنْ ذَنْبِكَ الْمُخْتَشَى
 - ٤ - تَعَلَّقَ بِجَانِبٍ مِنْ لَا يُخَيِّبُ
 - ٥ - تَذَلَّلَ لِدِيهِ بَلِيْنِ السُّؤَالِ
 - ٦ - تَعُدُّ بَعْدَ طَوْلِ الْجَفَا لِلصُّفَا
 - ٧ - تَنَاقَصَ عَمْرُكَ لَمَّا بَدَا
 - ٨ - تَمَرَّدْتَ عَنْ حُسْنِ لِيْنِ الْقَبُولِ
 - ٩ - تُرَى مَا جَوَابُكَ لَمَّا غَدَا
 - ١٠ - تَرَوْمُ النِّجَاةَ بِلَا تَوْبَةٍ
- فَعَمَّا قَلِيلٍ يَجِلُّ الْفَوَاتُ
إِلَى كَمْ وَكَمْ لَمْ تَفِدْكَ الْعِظَاتُ
عَلَيْكَ بِهِ مُوجِبَاتُ الشَّتَاتِ
إِلَيْهِ الْمَنِيبُ، الْجَزِيلُ الْهَبَاتِ
وَطَوَّلَ انْكَسَارَكَ حَتَّى الْمَمَاتِ
وَتَرَقَّ الْمَعَالِي بِتِلْكَ الصِّفَاتِ
تَزَايَدُ أَفْعَالُكَ الْمُتَنَكَّرَاتِ
لَايَاتِ مُوجِدِكَ الْبَيِّنَاتِ
تُنَادِي بِأَفْعَالِكَ الْمُخْزِيَاتِ
وَإِنْ تَبَتْ، يَا صَاحِبِ، أَيْنَ الثَّبَاتُ؟^(١)

وله تخميس للامية محمد البوصيري (١٢١٣ - ١٢٩٦) صاحب قصيدة
«البردة» في ٣٤٢ بيتاً و١٦٦ شطراً مستقلاً، مطلعها:

يَا غَافِلًا مِنْهُ طَيْبُ الْفَعْلِ مَجْهُولُ
فَهَا دَلِيلٌ أَتَى نُصْحًا وَمَدْلُولُ
عَنِ الْهُدَى بَضَلَالِ الْغِيِّ مَعْقُولُ
إِلَى مَتَى أَنْتَ بِاللَّدَاتِ مَشْغُولُ؟
وَأَنْتَ عَنْ كُلِّ مَا قَدَّمْتَ مَسْئُولُ^(٢)

وبدا شغوفاً بالتلاعب اللفظي والبياني كما في قصيدته: «دُرُّ النُحُورِ فِي
التَّوْبَةِ إِلَى الْمَلِكِ الْغُفُورِ»:

أَنَا الْفَقِيرُ الْكَسِيرُ الْمُسْرِفُ الْعَانِي
أَنَا الْضَعِيفُ أَسِيرُ اللَّهْوِ فِي مَرَحِ
أَنَا الذَّلِيلُ الضَّعِيفُ الْعَاجِزُ الْوَانِي
أَنَا الْجَهْلُ الْغَفُولُ الْمُذْنِبُ الْعَانِي
أَنَا الَّذِي لَمْ أَفِ بِالْعِلْمِ فِي عَمَلِي
أَنَا الَّذِي سَاءَ لِي جَهْلِي وَعِصْيَانِي

(١) المرجع نفسه، ص ١٤٥.

(٢) المرجع نفسه، ص ٩٧.

أنا المُسَوِّفُ في الأيامِ أَقْطَعُهَا لَهَواً وَسَهَواً بتفريطي وإِرْكَاني
أنا المُضَيِّعُ أوقاتي بلا عَمَلٍ يُرْضي الإلهَ فيا ذُلِّي وخُسْراني^(١)

وللكفرقوقي ألفياتٌ شعريّةٌ تسير أوائل أبياتها على حروف الهجاء، ومنها
الألفيّة المربّعة على الشكل التالي:

يا ذا القُدُسِيَّةَ يا ذا القُدُسِيَّةَ أَصْلِحْ لي قلبي في صَفْوِ النِّيَّةِ
أنا المُسْتَعْفِي بِاللَّطْفِ المَخْفِي يا مَوْلَى اللَّطْفِ يا ذا العَظِيَّةِ
بِالهادي المُهْدِي من نورِ الرُّشْدِ بِالْفَضْلِ المُسْدِي يا ذا الجُودِيَّةِ
تُبْ على المُخْطِي يا مَوْلَى مُعْطِي وَأَمْدُدْ لي بُسْطِي يا ذا الأَنْسِيَّةِ
تَبَّتْ إيماني وأصْلِحْ لي شاني يا ذا الإحسانِ والجَبْرُوتِيَّةِ^(٢)

وإلى جانب التصنُّع والتفنُّن والتزام ما لا يلزم، نظم الكفرقوقي قصائد
كثيرة على الأوزان التقليديّة. منها، على وزن «البيسط»، قصيدة «وصف
الأصدقاء» ومطلعها:

يا قَلْبُ دَعْ مَنْ تُعاني من بني الزَّمنِ ففي الودادِ صحيحُ القومِ كالزَّمينِ
وَكُنْ على حَذَرٍ مِمَّنْ وثِقَتْ بِهِ فما صديقٌ على وُدٍّ بِمُؤْتَمِنِ^(٣)

لا يتخلَّل شعره ضعف أو ركالة، وإنَّما كانت نماذجه على غرار النابيهين
القدماء، إلى حرصه على إظهار فنونه ومهارته.

ولا يقلُّ نثر الكفرقوقي قيمةً عن شعره، وهو يجيد بلوغ أهدافه المعنويّة،
متوسلاً إليها بطرائق الإرسال المعهودة في أيامه. مثلاً في الابتهاال: «إلهي!
شفيعنا إليك الذلُّ والانكسار والندم والرجوع والدموع الغزار. إلهي! إن كانت
ذنوبنا قد أخافتنا من عقابك فإنَّ حسن الظنِّ قد أطمعنا في ثوابك. فإن عفوت

(١) المرجع نفسه، ص ١١٩.

(٢) المرجع نفسه، ص ١٣٣.

(٣) المرجع نفسه، ص ١٣٧.

فمن أولى منك بذلك، وإن عذبت فمن أعدل منك هنالك؟...»^(١).

وابتهاله هذا يشهد بما توصل إليه في مطالعته وتمرسه بالكتابة من تطوُّر وإيذانٍ بالنهضة الآتية. وإنَّما الحرص على السجع في نصّه أوقعه في استعمال لفظة نافلة، أقحمها إقحاماً بغير مسوّغ، وهي لفظة «هنالك» التي يستغني عنها المعنى بلا خلل.

وللأديب موعظة طويلة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والاعتبار بمن رحل. وأسلوبه فيها تأثري حيّ، نابض بالحياة، يكثر فيه التكرار والسؤال، وعبارات التأوّه والتفجّع والأسى. منها:

«إخواني!

قلوبنا بالغفلة رحلت عن الأجسام. إخواني! الى من أتحدث وليس في الحيّ خيام؟ إخواني! أما تنظرون إلى ما فعلت بنا الزلاّت والآثام؟ قيّدنا التقصير ودنا الحمام. فأوّاه علينا من هول يوم الشور ونفخ في الصُّور. بالله يا إخواني إلى متى تؤخّرون المتاب؟ وهذا المشيب قد أتى وقد تولّى الشباب؟ يا هذا متى تصالح مولاك؟ متى تقف بالباب؟...»

آه على قلوب أذابها حرُّ الغليل. آه على نفوس أفناها البكاء والعيول. آه على جوارح قابلت بقبحها الفعل الجميل. آه على قلوب لم تتفكّر في يوم الموت والرحيل. آه على أكباد تنقطع خيفةً من الملك الجليل. آه على جنّة عدنٍ وظلّ ظليل...»^(٢).

الشيخ الفاضل محمّد أبو هلال^(٣)

مارس الشيخ الفاضل الأدب شعراً ونثراً، فقصد القصائد في مختلف

(١) المرجع نفسه، ص ١٧٢.

(٢) المرجع نفسه، ص ١٧٣ - ١٧٧.

(٣) ولد في «كوكبة أبو عرب»، في قضاء راشيا الوادي، حوالى عام ١٥٧٩، وتوفي في «عين عطا» عام ١٦٤٠. كان شديد التقشف حتّى الاعتزال في المغاور. بلغ مرتبة شيخ العقل. وكما عبّر أبو زكي: «طبقت شهرة تقواه وعلمه وورعه وزهده وعفافه وطهارته آفاق لبنان» (المرجع نفسه، ص ١٧٩ - ١٩٠).

الأبواب الشائعة في زمانه من غزلٍ ومدحٍ وهجاءٍ ووصفٍ واعتذارٍ وزهدٍ وتصوّفٍ. وكتب الرسائل الدينيّة الناضحة بالنصائح والوعظ والتواضع والأدعية، ما يجعلنا نفصح له، في مجال باب التصوّف اللاحق، مكانةً خاصّة، مكتفين، ههنا، بتقديم ما تيسّر من أغراض شعره الزمنيّ.

من باب الغزل قصيدته «مشوقة القلوب إلى لقاء المحبوب»، ومطلعها:

شوقاً يشبُّ زفيراً من حرارته	والدمع ما بين مسجور ^(١) ومُنسجم
نيراننا لم تزل دوماً لبعدكم	مسعورةً بهجيرٍ دائمٍ الضّرَم
أرواحنا نحوكم بالشوق طائفة	قلوبنا لم تزل بالبعد في ألم
مُنوا علينا بقربٍ في جواركم	وإجعلونا لكم في جملة الخدم ^(٢)

ومن الشعر الدينيّ قصيدة «يا نبيّ»، يقول فيها:

يا نبيّ يا مُمَجَّد	يا نظامَ العالمين
يا نبيّ يا مُعَظَّم	يا وليّ المنزّلين
يا نبيّ يا مُقَدَّس	يا ملكَ الحالّين ^(٣)
يا وليّ الله حقّاً	يا رجيحَ الوزنتين
يا صفيّ الله صدقاً	يا سراجَ الخافقين ^(٤)

وله قصيدة طويلة (٢٤٥ بيتاً) بعنوان «يوم البعث» يقول في مطلعها:

ألا أيّها الناسُ النيامُ تنبّهوا وجدّوا جُهودَ الفائقِ اليقظان^(٥)

(١) مسجور: متقد.

(٢) المرجع نفسه، ص ٢١٤.

(٣) حالة العسر وحالة اليسر.

(٤) المرجع نفسه، ص ٢١٧. الخافقان: المشرق والمغرب.

(٥) المرجع نفسه، ص ٢١٩.

وفي الإخوانيات قصيدة طريفة بشكل «رسالة إلى المشايخ الحليين»، ومطلعها:

أَهِيمُ مُحَيَّا الْقَوْمِ مِنْهُمْ تَوَدُّدًا بِأَوْفَى سَلَامٍ ثُمَّ أَزْكَى تَحِيَّةٍ
حَاءَ حَذَاهُ الشُّوقُ نَحْوَ مَحَلِّهِمْ فَهُمْ مَقْصَدِي دُونَ الْأَنَامِ وَبُغْيَتِي
... وَأَوْ وَإِنْ كَانَ الْبُعَادُ مَسَافَةً وَلَاهُمْ قَرِيبٌ فِي حَشَائِي وَمُهْجَتِي
دَالٌ دَوَاهُ عِنْدَكُمْ لَيْسَ خَافِيًا وَدَائِي مِنْهُمْ مِنْ صَحِيحِ الْمَحَبَّةِ^(١)

نرى في ما أثبتناه من شعره أنه يعبر بصدق وإخلاص عما يجيش في صدره. وقد يتصنع في معرض الظرف والمنافسة. وأسلوبه عربي صميم. وإلى ما شاهدناه من تصنع في إخوانياته، نقرأ لفؤاد أبوزكي: «إنَّ الفاضل يُعْتَبَرُ مِنَ الشعراء المطبوعين الذين لم يحاولوا التصنع والتكلف في نظمهم»^(٢). وقد يَرْجُحُ اقتناعنا بهذا الرأي عندما نعالج شعر الشيخ الفاضل الصوفي في موقعه من الدراسة.

أما نثر الشيخ الفاضل فكثير، وجُلُّه مواعظ ونصائح وتوجيه أخلاقي متوجّب على الشيخ الشهير بعلمه وتقاه، والمقصود من كلِّ حَدَبٍ وَصُوب. وأما أسلوبه الشَّريّ فنحكم عليه بعد إيراد نموذج منه: «رسالة إلى الإخوان المُحِقِّين».

بعد البسملة والحمد لله والصلاة والسلام عليه وعلى رسوله الأمين في استهلال طويل يبلغ صفحةً كبيرة وربع صفحة، يتوجّه الشيخ الفاضل إلى الإخوان:

أيُّهَا الْإِخْوَانُ الْمُحِقُّونَ!

الأَجَلَةُ الْمُهْتَدُونَ، السَّالِكُونَ سَبِيلَ الْهُدَى وَالْإِيمَانِ، الْمُتَمَسِّكُونَ بِطَاعَةِ الْمَلِكِ الدِّينَانِ، الْوَاقِفُونَ عَلَى مَنَهِجِ الْحَقِّ وَالصَّدَقِ وَالْإِتْقَانِ، الْعَابِدُونَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْمَنَّانِ، الْمُقَرَّرُونَ بِوَحْدَانِيَّتِهِ فِي كُلِّ عَصْرِ وَزَمَانٍ. وَحَرَسَكُمُ الْمَوْلَى مِنْ

(١) المرجع نفسه، ص ٢٣١. وَرَمَزَ بِالْحَاءِ وَالْوَاوِ وَالذَّالِ إِلَى أَوَّلِ حَرْفٍ مِنْ أَسْمَاءِ الشُّيُوخِ.

(٢) المرجع نفسه، ص ١٩١.

خطوات الشيطان، وكلاكم وأعانكم وأولاكم، وأمدكم بمواد توفيقه، وأخذ بكم في الصواب والخير إلى أبهج طريقه، وأعانا وإياكم على المبالغة في مرضاته، ووفقنا وإياكم حقوق دينه ومفترضاته...»^(١).

إن أسلوب الشيخ الفاضل، كما نراه، سهل واضح. ولغته متماسكة متينة تسير على سنن الكتاب العرب الكبار في عز نهضتهم، كعبد الحميد الكاتب (ت ٧٥٠) في رسالته إلى الكتاب^(٢) وغيره، قبل أن تسيطر على الترسل ضروب الصناعة والبديع. أما السجع المعتمد، أحياناً، فهو، عدا درجّة العهد، يجاري التأثير بالموضوع، ويهدف إلى مزيد من التأثير في القارىء.

طرابلس

كانت طرابلس منذ القرون الوسطى ومنذ حكم بني عمار (١٠٧٠ - ١١٠٩) ومكتبتهم الشهيرة، بؤرة ثقافية ومقصداً للكتاب والشعراء والعلماء والمتأدبين. أمتها طائفة من الشعراء النابغين قبل عهد بني عمار، وعلى رأسهم المتنبي (٩١٥ - ٩٦٥) وأبو العلاء المعري (٩٧٣ - ١٠٥٧). ومثلما كان أدباء جبل عامل وشيوخها الشيعة يتوافدون على النجف الأشرف في العراق وعلى مدارس إيران ومساجدها، كان الطرابلسيون السنيون يقصدون الأزهر ودمشق، ويتلقون روافد المعرفة والتوجيه الثقافي من جامعي بل جامعتي «القيروان» و«الزيتونة» في تونس. وشكل دخول الصليبيين طرابلس في ٢٦ حزيران ١١٠٩ نكسة لاستمرار نهضتها الثقافية. وما إن خرجوا من بلادنا عام ١٢٢٤ حتى عادت طرابلس تنتفض من كبوتها، وتحيي ماتهدم من تراثها^(٣).

(١) المرجع نفسه، ص ٢٤١ - ٢٤٢.

(٢) المجاني الحديثة، دار المشرق، بيروت، الطبعة الثالثة ١٩٧٢، ٣٣٣/٢ - ٣٣٧.

(٣) محمد علي مكّي: لبنان من الفتح العربي إلى الفتح العثماني، ص ٩٩ - ١٠٢؛ ووليم الخازن: مظاهر الحضارة اللبنانية زمن الدولة العباسية، ص ٥٠ - ٥١؛ وعبد الله نوفل: كتاب تراجم علماء طرابلس وأدبائها، ص ٢.

كتب الدكتور بكري شيخ أمين في كتابه «مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني»: «ولما جاء عهد المماليك استمرت الحركة الثقافية لأنهم كانوا، على الرغم من بعدهم عن العروبة، يؤمنون بالإسلام، ويخلصون له، ويتحمسون لعلومه وآدابه ولغته، وقد أبقوا لنا مدارس كثيرة في الشام ومصر والحجاز لا تزال شاهدة على نشر العلم وتعميمه. ولم يخلُ عهد أحدهم من إشادة مدرسة أو خزانة كتب، أو تأسيس كتاب للأطفال أو دار قرآن للأيتام أو دار حديث للطلّاب»^(١).

ومن القرن الخامس عشر ابتدأنا نتصل بطائفة من شعراء الفيحاء وكتّابها ومعلّمها من الأئمة والشيخوخ. وكتاب عبد الله نوفل «تراجم علماء طرابلس وأدبائها» يعطي فكرة جيّدة عن نهضة اللغة والآداب، آنذاك، في عاصمة الشمال.

وظهرت بعد صاحب «التراجم» كتب وأطاريح ومقالات كثيرة تبين دور طرابلس الثقافيّ خلال القرون الماضية، وطابع الاستمرار والتواصل اللذين اتّصف بهما دورها هذا. كما نقرأ للدكتور نعمه الديب، وهو يتحدّث عن ملامح المدينة الفكرية والأدبية بالاستناد إلى غير مصدر ومرجع: «فقد عُرفت طرابلس عبر العصور بأنّها «مدينة العلم والعلماء» بما حوت من مئات ألوف الكتب القيّمة التي نهل منها العلماء والأدباء والشعراء المعارف السائدة زمن تلك العصور، كما قدم إليها مشاهير الأعلام ليأخذوا عن محدّثيها، ويزوروا دور العلم والمكتبات فيها. هكذا كانت حالها في الماضي والتي استمرت مع الزمن بفضل اهتمام بل شغف أبنائها بالعلم والأدب. ولا غرو في ذلك، بالنسبة إلى طرابلس، لأنّها كانت مربّضاً من مرباض الحضارة، والفكر، والإشعاع الذي سطعت أنواره في العالم، وهي تحمل رسالة فكرية وروحية بارزة»^(٢).

(١) بكري شيخ أمين: مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني، ص ٥٧.
(٢) نعمه الديب: شاعر الفيحاء سابا زريق (١٨٨٦ - ١٩٧٤) حياته وآثاره، أطروحة دكتوراه اختصاص في اللغة العربية وآدابها بجامعة القديس يوسف، آذار ١٩٨٦، ص ٥٠ - ٥١.

ثالثاً: المدرسة المارونية

ألف - تأسيسها

تأسست المدرسة المارونية عام ١٥٨٤ برومية في عهد البابا غريغوريوس الثالث عشر (١٥٧٢ - ١٥٨٥) والبطريرك المارونيّ سركيس الرزي (١٥٨١ - ١٥٩٧). وكان لها ولتلاميذها الأثر البين في اللغة والعلوم والترجمة والنهضة الإنسانية العامة في لبنان والغرب^(١).

وقبل افتتاح المدرسة المارونية كان البطاركة «يرسلون الأحداث الأذكياء المرشّحين للكهنوت إلى روما لكي يتعلّموا في كليّاتها الأوروبية ويتقنوا الفلسفة واللاهوت وما إليهما من العلوم الرفيعة، ليتمكّنوا من ترجمة البراءات الحبرية والكتابات الرسولية، وبالتالي كي يقدروا أن يصحّحوا الكتب الطقسية وينقّحوها ويطبعوها مع ترجماتها ويساعدوا إخوانهم اللبنانيين على الترقّي في مدارج المعارف الدينية والمدنية على السواء»^(٢).

(١) قال مارون عبّود في «صقر لبنان» (ص ٧٣): «والمدرسة المارونية في رومة، التي كان لها أعظم أثر في تمشرق الغرب وتمغرب الشرق، كانت غايتها الأولى الدين». وقال صلاح لبكي في «لبنان الشاعر»: «هنالك حدثان هامين أثرا في مجرى الحياة الفكرية في الشرق العربيّ كله، وما الشعر إلّا ناحية من هذه الحياة. أولهما عودة تلامذة مدرسة رومة المارونية التي كانت قد أنشئت سنة ١٥٨٤ إلى لبنان. وثانيهما مجيء نابليون إلى الشرق. ومعنى الأول أنّ لبنان قصد الغرب فأحضره إلى الشرق. وهذه البادرة تكرّرت يوم ذهب الأمير فخر الدين المعنيّ (١٥٧٢ - ١٦٣٥) إلى توسكانا فتعرف في فلورنسا عاصمة الحضارة الغربية يومذاك إلى نسق المعيشة وإلى الفنّ وإلى القصور وحمل إلى بلاده الرغبة في محاكاة تلك الحضارة العظيمة. ومعنى الثاني أنّ الغرب عاد فقصد الشرق. وكان من أمر هذين الحدثين العظيمين على تطوّر النهضة الفكرية في الشرق أنّهما ألها الشعلة في لبنان ومصر» (المجموعة النثرية، ص ١٣٤). وأثير بوضوح في الذكرى المئوية الثانية لوفاة ميخائيل الغزيري (١٧٠٨ - ١٧٩٢) والتي أحيتها جامعة الروح القدس في ٢١/١١/١٩٩٢، دور العالم اللبناني الطليعيّ في الاستعراب أي نقل اللغة الغربية وثقافة العرب إلى الغرب. وجاءت في هذه الذكرى خمس شهادات لعلماء إسبان تشيد بفضل الغزيري، خصوصاً في تبويب مخطوطات مكتبة الإسكوريال (المكتبة الملكية الإسبانية) وجدولتها ونشر الدراسة العربية في إسبانية (جريدة النهار، ٢٤/١١/١٩٩٢، ص ١٩).

(٢) ملحق كتاب تاريخ الأزمنة، من وضع الأبائي بطرس فهد، ص ٦١٨؛ عن الكردينال نرلي في الكتاب الذي طبعه برومية عام ١٦٨٥ حول المدرسة المارونية.

واتّصال لبنان بالغرب، وخصوصاً بفرنسة، والتفاعل الحضاريّ بينهما قديم، تجلّى منذ الحملات الصليبيّة. ويمكن مراجعة هذا التفاعل، والأشخاص الذين آمنوه، والمؤسّسات التي رعته، في كتب أدبيّة وتاريخيّة كثيرة^(١).

أدار الآباء اليسوعيّون المدرسة المارونيّة منذ تأسيسها حتى عام ١٧٧٣ إذ حلّ الحبر الأعظم جمعيّتهم. وتخرّج فيها ٢٨٠ تلميذاً قبل اجتياح بونابرت لرومية عام ١٧٩٨ ووضع يده على المدرسة، وقد قرّر إغلاق المؤسّسات الدينيّة ومصادرة أموالها. وانتظرت المدرسة المارونيّة العام ١٨٩٢ لكي تفتح أبوابها مجدّداً بفضل البابا لاون الثالث عشر (١٨٧٨ - ١٩٠٣) «بابا العمّال»، والمطران الياس الحويّك (١٨٤٣ - ١٩٣١) الذي أصبح بطريكاً (١٨٩٩).

تخرّج فيها أكثر من أربعين أسقفاً خدموا طائفهم واللبنانيّين عموماً بما حصّلوا من علوم ومعارف. وأغلقت المدرسة نهائياً في بداية الحرب العالميّة الثانية عام ١٩٣٩، وما زال بناؤها ملكاً للطائفة المارونيّة، ومقرّاً للنائب البطريركي في رومية^(٢).

باء - أثرها في اللغة والآداب العربيّة

توصّل النقد الحديث إلى نظريّة قوامها النظر في النصوص على ضوءها

(١) منها بالفرنسيّة *Les Échanges Culturels entre les Maronites et l'Europe du Collège Maronite de Rome (1584) au Collège de Ayn - Warqa (1789)* Beyrouth, 1984 (Nasser Gemayel).

وكتّابان لهذّي عذرة: في منشورات الجامعة اللبنانيّة: الأول عام ١٩٨٢ والثاني عام ١٩٨٥.

Gérard De Nerval et le Liban, et Flaubert et le Liban.

(٢)	السنوات التي فتحت فيها	المجموع	السنوات التي أقفلت فيها	المجموع
	١٧٩٨ - ١٥٨٤	٢١٥	١٨٩٢ - ١٧٩٨	٩٤
	١٨٩٣ - ١٩١١	١٩	١٩١١ - ١٩١٩	٨
	١٩٣٩ - ١٩٢٠	٢٠	١٩٣٩ - ١٩٨٣	٤٤
		<u>٢٥٤</u>		<u>١٤٦</u>

عن الدكتور جوزيف أبو نهر: الظروف التاريخيّة لنشأة المدرسة المارونيّة الحديثة، مجلّة المنارة، السنة ٢٥، العددان الأوّل والثاني، ١٩٨٤، ص ٣٥٤.

بالذات، لا على ضوء أحدث النظريات النقدية. فالنص نفسه ينطوي على مقاييس نقده. لا أتحدث هنا عن الألسنية التي يمكن أن يفيد منها النقد إفادة جُلّى بالنظر إلى ظاهر النص، ولكنني أقصد عمق المبنى والمعنى معاً.

انطلاقاً من مفهوم النقد الحديث هذا، أتناول نتاج المدرسة المارونية في اللغة والآداب العربية، متخطياً المحطات التاريخية التي كثر تداولها وتقليب مضامينها. ولن أبالغ مع الدكتور أنطون غطّاس كرم الذي ارتأى أنّ «الكلام على الأدب يبدأ حيث ينتهي الكلام على التاريخ»^(١)، فالتاريخ والأدب، عندي، جُذنان متلازمان، يتعاونان ويتكاملان.

نشأت المدرسة المارونية في عهد كان التأخر يخيم فيه على العالم العربي، لا التأخر التاريخي اللغوي بنوع خاص، لأنّ ذاك العصر لم يخلُ من أساليب بيانية، وكتب لغوية وتاريخية، وفيه نشأت تصانيف شتّى في مصر والشام خصوصاً، ولكنه تأخر سياسي واجتماعي وإبداعيّ في ظلّ العثمانيين المتخلفين لغةً وحضارة. وصَفَ جرجي زيدان ذاك العصر بأنّه «عصر الشروح والحواشي»^(٢).

وكان الجوّ الأدبيّ في لبنان على شيء من الانتعاش. ألم تُعزّز إلى الأمير فخر الدين الثاني (١٥٩٠ - ١٦٣٥) نفسه أبيات زجلية؟^(٣) ألم يُنسب إليه أنّه أراد السير بلبنان في سبيل الحضارة العصرية؟^(٤).

(١) ملامح الأدب العربي الحديث، ص ١١.

(٢) تاريخ آداب اللغة العربية، ٢/ ٢٨٥.

(٣) من أقوال الأمير فخر الدين مجيباً يوسف سيفاً:

يَحْنَا ضَغَارٌ وَفِي عَيْنِ الْعَدُوِّ كِبَارٌ إِنْتُو خَشَبٌ حَوَزَ بَحْنَا لِيْلَخَشَبٍ مِشْشَارٌ
وَحَقَّ طِبَّةٌ وَزَمَزَمَ وَالنَّبِي الْمُخْتَارُ مَا بَعْمَرِ الدَّيْرُ إِلَّا مِنْ حَجَرٍ عَكَارٌ

وقيل إنّ الأمير فخر الدين غنّى مؤاله هذا بعدما سمع الموال الذي ردّت به ابنته «ست النصر»، زوج حسن بن يوسف سيفاً، على موال السيّفات اللواتي عرّضن فيه بقصر قامة أبيها. (كرم البستاني: أميرات لبنان، ص ٦٤ - ٦٦).

(٤) فيليب حتي: لبنان في التاريخ، ص ٤٥٤ و ٤٦٣. كتب المستشرق الألمانيّ هنريخ - فرديناند فوستنفلد (١٨٠٨ - ١٨٩٩): «لقد تقرّب (فخر الدين) من جهة إلى فئة من الناس فأجزل عليهم =

وجاء في مقدّمة فؤاد أفرام البستاني لكتاب أسامة عانوتي «الحركة الأدبيّة في بلاد الشام خلال القرن الثامن عشر»:

«القرن الثامن عشر مهضوم الحقّ، مبخوس القدر، في تاريخ الآداب العربيّة، على ما تأكّد لكاتب هذه الدراسة. فاندفع، جاهداً للانتصاف له، ولتخليصه من أسر الأحكام التقليديّة التي يتخطفها الباحث من الباحث دونما استقصاء ولا تمحيص.

ولعلّ مردّ هذه الأحكام التقليديّة إلى القول المردّد المتكرّر، المتناقل في أكثر كتب الأدب: إنّ دويّ مدافع بونابرت، في أرجاء وادي النيل، أيقظت الشرق من سباته الطويل. وهو قول، إن صحّ على مصر التي لم تعرف الطباعة، ولا المدارس العصريّة، إلّا في الربع الأوّل من القرن التاسع عشر؛ فلا يصحّ على لبنان الذي عرفها، ونعم بها، منذ أوائل القرن السابع عشر، برجوع الأفواج الأولى من خريجي المدرسة المارونيّة برومة؛ ولا على بعض أنحاء سورية، ولا سيّما حلب، التي عرفت الطباعة وما يليها من حركات فكريّة، منذ أوائل القرن الثامن عشر، بفضل علاقاتها بأوروبا، وبفضل اتخاذ المرسلين إيّاها مركزاً أوّل لعملهم الثقافيّ، ومنطلقاً لنشاطهم التبشيريّ».

أمّا أوروبا، فقد انتعشت النهضة فيها منذ القرن الخامس عشر في كل الميادين، وخصوصاً إيطالية التي أضحت واسطة العقد في احتضان هذا الانبعاث الجديد، ودعمه، وتصديره^(١).

وشارك خريجو المدرسة المارونيّة في النهضة الأوروبيّة، وتفاعلوا معها، آخذين ومعطين في إيطالية وفرنسة بخاصة. فمنذ توافدوا إلى المدرسة، وابتدأوا يتخرّجون فيها، عاونوا المستشرقين الأوروبيّين وشاركوهم ترجمة

= العطاء، ولا سيّما الشعراء الذين كانوا يقصدونه فيمدحونه فينالون منه المكافأة هدايا ثمينة» (فخر الدين أمير الدروز ومعاصروه، ص ١٤٩). وفي ذيل المصدر الأخير دراسة لفؤاد أفرام البستاني بعنوان «تراث الأمير فخر الدين»، ص ١٩٣ - ٢١٥، تبين ما امتاز به عهده من نهضة وإنجاز حضاريّ.

(١) الياس القطّار: مجلّة المنارة، ١٩٨٤، ص ١٢٨ - ١٢٩.

وتأليفاً. وعندما أغلق بونابرت المؤسسات الدينية بما فيها المدرسة المارونية وصادرها على أموالها عام ١٧٩٨، اتخذ تراجمة ومعاونين من تلاميذها كالياس فتح الله، ويوسف مسابكي اللبنانيين، والأخ مشهرة شامي الماروني الحلبي^(١).

وما زال اسما جبرائيل الصهيوني (١٥٧٧ - ١٦٤٨) وإبراهيم الحاقلائي (١٦٠٥ - ١٦٦٤) يشعان على مدخل المعهد الملكي Collège Royal في باريس. وممن علم فيه يوحنا الحصري (ت ١٦٢٦) وسركيس الجمري (ت ١٦٦٨). واعترف المستشرق الإيطالي إغناطيوس غويدي Ignazio Guidi (١٨٤٤ - ١٩٣٥)، أستاذ طه حسين في الجامعة المصرية، بأنه أجاد العربية بفضل اتصاله برجال الإكليروس الماروني المقيمين في رومية، خصوصاً الأبائي جبرائيل القرداحي (١٨٤٥ - ١٩٣١)^(٢) الذي كانت تربطه به صداقة حميمة^(٣).

ولا أراني بحاجة إلى التوقف طويلاً عند فضل خريجي المدرسة المارونية في لبنان والمشرق العربي، فإن مؤلفاتهم الجمة، ومدارسهم الكثيرة، تشهد بثمارهم. ويكفي أن تكون، من ثمارهم، مدرسة عين ورقة الشهيرة التي أسست عام ١٧٨٩، وغدت، بفضل من خرّجتهم من رجال العلم واللغة والآداب والدين، منارة حضارية ساطعة، ومركزاً نهضوياً مرموقاً^(٤).

وفي دراستي هذه، سوف أقتصر على معالجة أثر المدرسة المارونية في اللغة والآداب العربية، منطلقاً من نماذج معينة لتلاميذها، في أبرز الموضوعات

(١) Pierre Raphaël, *Le rôle du collège maronite romain*, p 63.

(٢) راهب مارونيّ أستاذ اللغات الشرقية في البرويغندا (رومية). له «اللباب» وهو قاموس سريانيّ عربيّ، ١٨٨٧ (المنجد في الأعلام، ص ٥٤٧).

(٣) فردنان توتل: إغناطيوس غويدي المستشرق الإيطاليّ الكبير، مجلة المشرق، س ٣٣، تموز - أيلول ١٩٣٥، ص ٤٤٦. ولنا شاهد آخر في وزير الثقافة الفرنسيّ جاك لانغ Jack Lang الذي نوّه عام ١٩٨٢ بفضل خريجي مدرسة رومية في مجالات العلوم والطباعة والتأليف. (*Le livre et le Liban*, p. 11).

(٤) راجع في هذا الموضوع كتاب الأب الدكتور ناصر الجميل:

Les échanges culturels entre les maronites et l'Europe du Collège Maronite de Rome (1584) au Collège de Ayn - Warqa (1789).

التي اختطّوها لأنفسهم نثراً وشعراً، مبتدئاً بالرسائل، فالترجمة، فعلم الكلام والمنطق، فالتربية والتعليم، فالقوانين والعقود، فالتاريخ، وأخيراً الشعر. وفي النهاية أذكر محصّلة بحثي في نقاط محدّدة، فأعدّد بإيجاز فضل المدرسة المارونيّة على اللغة والآداب العربيّة.

١ - الرسائل

أبدأ بالرسائل لأنّها، فضلاً عن كثرتها المطلقة بين رومية والغرب عموماً وبين لبنان^(١)، توفّر مصدراً أقرب ما يكون إلى العفويّة والسلفيّة، وبالتالي أبين وأقرب دلالة على الأساليب الكتابيّة المستعملة.

١٠١ - رسالة من جبرائيل الباني أوّل تلاميذ المدرسة المارونيّة، كتبها بعد رجوع الأب إليانو من مصر إلى البندقيّة عام ١٥٨٥، ومنها يظهر حب التلامذة للأب إليانو وعرفانهم جميله:

«بسم الاب والابن والروح القدس

أقبل الأرض وأحني بالهامة الخاطئة بين الأيادي الطاهرات التقيات الزكيات اي ايادي المحب الحنون وتاج راسي وقرة عيني ومهجة فؤادي المحب المحبوب أبي القس باطيشتا^(٢) سلّمه الله تعالى.

سبب تسطيها الأشواق إلى نظرك البهيّ الله يروينا إياه بخير وعافية...».

(التوقيع: احقر الناس عبدك وابنك جبرائيل الباني ابن القسّ يوسف) وفي رسالة أخرى كتبها جبرائيل للأب إليانو باسمه وباسم ثمانية من رفقته يقول:

«أقبل الأرض وانحني بين أقدام السائر بخدمة العلي الشريف ربّنا ومخلصنا يسوع المسيح الذي وعد بإنجيله المقدّس ملكوت السموات

(١) يقول الدكتور أسامة عانوتي في كتابه الحركة الأدبيّة في بلاد الشام خلال القرن الثامن عشر: «لقد أربت نسبة الرسائل من نثر العصر على نسبة فنونه الأخرى». (ص ٩٠).

(٢) اسمه الكامل جوان باطيشتا إليانو.

للمجتهدين بعمله... امين. إلخ... فمن كل بد وسبب يا أبونا.
إلخ»^(١)...

٢٠١ - كتاب الخوري يوحنا أيوب الحصري في نفس السنة
والمناسبة:

«بسم الربّ حافظ خائفه وموصلهم الى درج الكمال كما يتوق الأيّل الى
ينبوع المياه كذلك تاقت نفسي الى حضرة الأب القديس الجوهر النفيس الذي
ليس في قداسته شك على الاعلام ومصباح الظلام... فخر العلماء وزين
الكهنة أبي ومعلّمي وتاج رأسي القس باطيشتا أدام الرب كهنوته ويرحمني ببركة
صلواته. إلخ...»

تلميذك الحقير في الكهنة يوحنا
الحصري من جبل لبنان.»^(٢)

٣٠١ - رسالة البطريك سركيس الرزي الى الأب إليانو بتاريخ ٢٥ آذار
١٥٨٥ يهنّيه فيها بالنجاة من محنته ويوصيه بالتلاميذ الموارنة:

«بطرس بطريك الموارنة (بالكرشوني)

السلام والبركة التي حلّت على جوق الرسل تكون حالة على أعز
الأصدقاء والمحبين القس باطيشتا. الرب يبارك عليك. في كل أيام حياتك
ويخلصك في الدنيا والآخرة. ويكون حظك في ملكوته السماوية بصلوات
العذراء الطاهرة والآباء القديسين آمين.

وسبب تسطيحها كثرة الأشواق إلى رؤياك السعيد الله يروينا وجهك بخير
وعافية آمين...»

برزت من دير سيّدة فنّوين
نهار عيد البشارة ١٥٨٥.»^(٣)

(١) لويس شيخو: الطائفة المارونية والرهانية اليسوعية في القرنين السادس عشر والسابع عشر،
ص ٨١.

(٢) المرجع نفسه، ص ٨٢.

(٣) المرجع نفسه، ص ٨٢ - ٨٣.

٤٠١ - رسالة البطريك يوسف التيان^(١) للقس أرسانيوس القرداحي
وكيله في رومية في ٥ حزيران ١٨٠٣ :

«البركة الرسولية تشمل حضرة ولدنا العزيز القس ارسانيوس الاكرم باركه
الرب آمين .

أولاً مزيد الأشواق لرؤياكم بكل خير والثاني الموجب لتحرير الاحرف هو
أولاً السؤال عن احوالكم نسأله تعالى تكونوا دائماً بغاية الصحة والتوفيق: ثم
اننا قد وقفنا على مكتوبكم لحضرة ولدنا رئيسكم العام المحترم بتاريخه اول
نيسان سنته ومنه فهمنا وصول جميع كتاباتنا ليدكم وقوي انسرنا من ذلك .
إلخ . . .

الحقير

يوسف بطرس تيان

البطريك الانطاكي^(٢)

هذه نماذج أربعة عن الرسالة المحررة بقلم تلاميذ المدرسة المارونية .
اخترنا ثلاثاً منها من السنة الثانية لفتح المدرسة (١٥٨٥)، والرابعة من مطلع
القرن التاسع عشر (١٨٠٣)، لكي نرى الفرق الحاصل بين الحقبين .

تطالعنا هذه الرسائل بعادة البسملة، وإن كانت عند المسلمين «بسم الله
الرحمن الرحيم»، فهي عند المسيحيين «بسم الأب والابن والروح القدس». .
وكتابة «بسم»، بحذف الألف، مماثلة للكتابة القرآنية لهذه العبارة. ولا غرابة
في كثرة التعابير الدينية الواردة على لسان التلاميذ. فالمدرسة المارونية،
أساساً، مدرسة إكلييريكية .

(١) اسمه الحقيقي مفوض بن سلوم التيان من بيروت. أرسله البطريك يوسف اسطفان تلميذاً الى
مدرسة الموارنة في رومية عام ١٧٧٣. صار بطريكاً في ٢٨ نيسان ١٧٩٦، وتنازل عن
البطريكية عام ١٨٠٩. توفي في دير قنوبين في ٢٠ شباط ١٨٢٠ (مجلة المنارة، السنة الثامنة،
١٩٣٧، ص ٩-١٤).

(٢) مجلة المنارة، السنة الثامنة، ١٩٣٧، ص ١٦-١٧.

وامتهان النفس، وتعفير الجباه على الأعتاب، واستعمال ألفاظ التعظيم والتفخيم كل ذلك مستمد من الآداب السلطانية المعروفة في ذاك الزمان.

وتلفت القارئ كثرة الاصطلاحات المكررة بعيداً عن العفوية في موضوع يفترض وجودها. وربما تبدت شدة الخضوع للسلطات العليا خضوعاً في كل الميادين، ومنها ميدان الكتابة. ومن الصعب، إن لم يكن مستحيلاً، مصادفة الشخصية الأدبية في كتابات تلك العصور.

يقول الكاتب: «أقبل الأرض وأحني بالهامة الخاطئة بين الأيادي الطاهرات». هل نعد ذلك خبثاً اجتماعياً؟ إن من أكثر المقاييس النقدية خطأ ما يحكم منها على التراث القديم بذهنيّة العصر الحاضر ومفاهيمه. لذلك، علينا أن لا نرى في تعابير التلاميذ سوى اتباعٍ للسلف، وللقاعدة الكتابية التي يخطأ من يهملها أو يشدد عنها.

ويتابع الكاتب: «وتاج رأسي وقرّة عيني ومهجة فؤادي» وهي أوصاف معهودة تحدوها الحماسة والتقيّد الشديد بالفرض الواجب من الاحترام.

أما الأخطاء اللغوية، فليست من هذا القبيل: فلا يُحني بالهامة وإنما تُحني الهامة. والأيادي جمع يد بمعنى الفضل، أما جمع يد بمعنى العضو المعروف فيكون على أيدي. وكأنما في استعمال طاهرات، نقيّات، زكيّات، نفحة تركيّة. واستعمال يروينا تكراراً بدل يرينا خطأ لغويّ بارز.

ولا حاجة الى البرهان على تأثر كتابات الموارنة، آنذاك، بالسريانية، فقد كانت السريانية لغة أساسية لديهم، وإن لم تبق الوحيدة. وأكثر كتاباتهم بالحرف الكرشوني. وكثيراً ما اختلطت العربية والسريانية خطأً ونهجاً عندهم؛ فإنّ «ترويسة» رسالة البطريك سركيس الرّزّي (النموذج رقم ٣) هي بالكرشوني، وسائر الرسالة بالحرف العربي. والتوكؤ على مزامير داود النبيّ ظاهر في النموذج الثاني: «كما يتوق الأيل الى ينبوع المياه. إلخ...».

وإذا انتقلنا مع النموذج الرابع الى مطلع القرن التاسع عشر، فلا نرى كبير اختلاف أو تطوّر في الأسلوب والنمط، فلا تشذيب للأسلوب، كاستعمال

أولاً وأولاً متتالين للتقسيم. ولا اعتناء بصحة اللغة كقوله «وقوي انصرنا من ذلك». ولا يصدمنا هذا الواقع إذا علمنا أن النهضة العربية الحقيقية تأخرت الى ما بعد منتصف القرن الماضي. وكانت الكتابة العربية، فيما سُمِّي عصر الانحطاط، تتقدّم ببطء واضطراب، وبقفزات غير رتيبة، بل قليلة متعثرة.

٢ - الترجمة

من أهم أعمال الترجمة التي تعهدها خريجو المدرسة المارونية ترجمة الكتاب المقدس في عهده القديم والجديد في باريس. وهي الترجمة المعروفة بالبوليغلوت Polyglotte^(١). عدا الترجمات المفيدة في مختلف العلوم والفنون.

ومن أشهر مترجميهم يوسف شمعون السمعاني (١٦٨٧ - ١٧٦٨) الذي احتل وظيفة ترجمان في مكتبة الفاتيكان عام ١٧١٠.

وأكتفي ههنا بنصين مترجمين متوخيّاً فيهما تنوعاً بل تطوراً في اللغة والأسلوب:

١٠٢ - ميزان الزمان، للأب نيرومبرغ اليسوعي، وعنوانه بالإيطالية:

La diferencia entre lo temporal y lo eterno

ترجمة يوسف بن جرجس الحلبي الماروني (حجم صغير)

«المقالة الأولى

في التمييز ما بين الزمني والابدي

الفصل الأول

في الزمني والابدي

إنه يجب علينا أولاً أن نتقدم بمعرفة مقدار الاشيا ليسهل علينا استعمالها. . . . وإننا عايشون في الزمنيات بجهل مفرط فكيف إذاً يمكننا ان

(١) نفّذها جبرائيل الصهيوني ونصر الله شلق وإبراهيم الحاقلائي. (ناصر الجميل في مجلة المنارة، ١٩٨٤، ص ٢٣٨).

نتطلع على الأمور الأخروية ونحن لا نقدر ان ندرك الأمور المتصرفين بها.
إلخ . . .»

وكتبت مقدمة الكتاب بأسلوب مسجع وبغير توقيع:
«بسم الأب والابن والروح القدس الاله الواحد
الحمد لله الذي جعل الزمان ميدان الانسان. وصير العمر ميزان الزمان.
إلخ . . .»

٢٠٢ - كتاب حوادث الاعتراف - تأليف الأب خريستوفورس
اليسوعي. ترجمه من التليانية الى العربية سنة ١٧٢٣ ابراهيم جلوان السمراني
الايبودياكن الماروني ربيب المدارس الرومانية العظيمة. منسوخ ومعرّب بخط
جبرائيل فرحات (المطران جرمانوس) في دير مار اليسع في الوادي المقدس
في اليوم السادس من نيسان ١٧٢٤.

«بسم الأب والابن والروح القدس الاله الواحد آمين

التقديم:

الحمد لله الذي أنار بصايرنا بوصاياه الالهية. وكشف لنا عن حقايق
الطرق الملكوتية بالتوبة السرية. وطهر انفسنا باسرار كنيسته السرية. بما اقتنته
من التحرز في نقاوة الذمة والنية. . . برية من كل قصاص استحقته بالعذابات
الأبدية. وليس لها في ذلك مزية شرعية. لو لم تتمسك بشفاعه خير البرية
ومعدن طهارة البكارة الكلية. أي مريم العذرا والدة الهنا مخلص الأمة البشرية.
فلها نقدم سلاماً واکراماً ومجداً بكرة وعشية».

المقدمة الأولى:

«إعلم ان هذا الكتاب الصغير الحجم قد طبع اولاً في بلد اسبانيا. وقدم
الى رُوسا كهنة تلك البلاد. ولكن يلزم الان ان يقدم الى روسا كهنة العالم
المسيحيين كلهم. والسبب في تأليف هذا المؤلف المختصر هو ما قالته القديسة
ترازيا الكرملية في احدى رسايلها: فليوعظ ضد الاعترافات الغير المفعولة
جيداً. لأنه من جملة الوسائط التي يستعملها الشيطان ليربح نفوساً كثيرة الى

جهنم هي الاعترافات النفاقية. إلخ . . .».

تبدو الترجمة الأولى كثيرة الالتزام بنهج التعبير الأجنبي، وغير مهتمة بفصاحة اللغة العربيّة وأصولها. إلّا أنّها التزمت التجانس اللفظي في العنوان على طريقة أهل العصر، ففسّرت العنوان الإيطاليّ وهو بمعنى «الفارق بين الزمنيّ والأبدّي» بميزان الزمان. وتبنّت المصطلحات العربيّة القديمة في استعمالها لفظي مقالة وفصل.

أمّا مقدمة الترجمة فمكتوبة بأسلوب عربيّ مسجّع يختلف كلّ الاختلاف عن الترجمة نفسها. وسبب ذلك، بنظرنا، ليس لأنّه أنشئ أصلاً بالعربيّة، وإنّما لكونه لكاتب آخر، ربّما كان الناسخ المتأخّر زمناً عن المترجم. وكثيراً ما كان النّسّاح يقدّمون للكاتب التي ينسخونها، كما نرى في النموذج الثاني الذي قدّم له جبرائيل فرحات.

ولم أتردّد في اختيار النموذج الثاني الذي تدخل جبرائيل فرحات في تعريبه، لأنّ فرحات من مدرسة حلب الشهيرة المتدرّجة من مدرسة رومية. وأستاذ فرحات وغيره من المارونيّين الحلبيّين هو بطرس التولاوي خريج المدرسة المارونيّة الذي مكث مدة طويلة في المدينة (١٦٨٥ - ١٧٤٦)^(١).

أسلوب النموذج الثاني متطور، ولا شكّ، والتقديم فيه لجبرائيل فرحات يسير على طريقة السجع التقليديّة، ويتأثّر في بعض نواحيه التعبير القرآني إذ يقول: «فلها نقدم سلاماً وإكراماً ومجداً بكرّة وعشيّة». وهو دليل على أثر القرآن في تطوير لغة المسيحيّين وإكسابها البلاغة والامتانة اللانفتين في التعبير.

أمّا ترجمة الكتاب، فتبدأ في المقدمة الأولى، ونرى فيها لغة عربيّة سهلة الألفاظ، مخفّفة من كل ما يعوق اللفظ كالهمز والتضعيف. ونلمح فيها أسلوب المطران جرمانوس فرحات في استعمال بعض التعبيرات التي لفت إليها في مؤلّفه اللغويّ «بحث المطالب» كإدخال أل على غير في قوله «الغير المفعولة»، وهو

(١) نبيل الحاج: الخوري بطرس التولاوي وأثره في النهضة، في مجلة المنارة، ١٩٨٤، ص ٢٩١ - ٣١٨.

- تعبير عربيّ صحيح . ودرج فرحات على تحبير مقدّمات كثيرٍ من كتب المدرسة المارونيّة، وتصحيحها، ونسخها. فهل يكون هو نفسه كاتب مقدّمة النموذج الأوّل المسجّعة؟

٣ - علم الكلام والمنطق

أقصد بعلم الكلام ما أجمع الفقهاء على تحديده بالدفاع عن الدين بالحجج المنطقية. وهو، بذلك، يشكّل مع علم المنطق موضوعاً واحداً. لا غرو في أن كثرة لجوء الموارد إلى هذا العلم، يعود إلى أن تاريخهم القديم حافل بالآتهامات المغرضة التي جرّت عليهم اضطهاداً واسعاً متلاحقاً، تمكّنوا من صدّه بمعاونة رؤساء الكنيسة وموفديهم صليبيين وقصّاداً رسوليين. اخترت لعلم الكلام نموذجين، ونموذجاً واحداً لعلم المنطق:

١٠٣ - كتاب ردّ على الهرطقة (في جزأين. نسخ عن نسخة دير حراش عام ١٩٠٣). تأليف المطران جرجس بن يمين الایسوعي على يد فرنسيس صلعون ميخائيل الغزيري واسطفان عواد تلاميذ مدرسة الموارد المباركة سنة ١٧٣٧.

«مقالة أولى

الفصل الأول

يتضمّن شرحاً ضد بدعة اوطيخا وتباعه يوضح بان في المسيح توجد طبيعتان كاملتان.

أولاً يجب علينا نعلم بما زعمه اوطيخا الذي هو رأس هذه البدعة. فزعم اذاً ان في المسيح بعد التجسد توجد طبيعة واحدة فقط. وسبب ذلك عناداً في نسطور الذي افترا قائلاً ان كان توجد طبيعتان في المسيح يكونا مسيحيان ولا مسيح واحد. لذلك قال اوطيخا ان في المسيح طبيعة واحدة لا غير. واقنوم واحد. وظن ان من يقرّ في طبيعتان يجب عليه يقر في مسيحيان هكذا زعم نسطور. إلخ»

٢٠٣ - الدر المنظوم رداً على المسائل والأجوبة الممضاة باسم البطريك مكسيموس مظلوم (تأليف البطريك بولس مسعد، ١٨٥٤ - ١٨٩٠)

«المقدمة في السبب الداعي لهذا الرد

أما بعد فيقول جماعة المحامين عن الحق اننا عثرنا الان على كيريسة مؤرخة في ٢٥ أيار سنة الف وثمانماية واربع واربعين تحت امضاء غبطة السيد مكسيموس مظلوم بطريك الملكيين الكاثوليكين الكلي الطوبى . وهي محتوية على ثلاثة سؤالات مردفة باجوبة ثلاثة ونتيجة : مضمونها ان الطائفة والطقس اليونانيين هما الاول في المشرق بناءً على أن المسيح رتب شريعته باللغة اليونانية وانه كان ينذر بها ورسله كذلك وان الليتورجيات المعبر عنها بنوافير القداس قد ترتبت بهذه اللغة اليونانية لأنها كانت عمومية عند جميع القبائل وانه من ثمه فجميع الطوائف الشرقية المسيحية الموجودة الآن هي منشقة عن الطائفة اليونانية وغير ذلك من التلفيقات كما يأتي بيانه . فعندما امعنا النظر في نوع هذه السؤالات واجوبتها فلم يكن يخال في فكرنا ان هذا السيد المغبوط يُظهر للوجود مثل هذه التلفيقات المشحونة تناقضاً واموراً لا اصل لها ولا اساس صوابي ولومهما كان له من الغايات لما هو مسموع عنه من التجمل بالعلم والخبرة ولكن من جهة نرى ان هذه الكيريسة ممضاة باسمه . ولذاكم السبب قد اضحيناً بدون شك ويقين في انها تكون منتسبة اليه . إلخ . . . » .

٣٠٣ - الايساغوجي اي مدخل المنطق للقس بطرس التولاني الماروني الكاروز في محروسة حلب ابرزه في ١٦ ايلول في سنة ١٦٨٨ مسيحية^(١) .

«فاتحة كتاب الايساغوجي والمنطق

الحمد لله الذي خلق الانسان وميزه من كافة انواع الحيوان بالنفس الناطقة العقلية الموهوبة له من نفخته الالهية . وحد له مناهج وسبل لاكتساب الفضائل الربانية . وعلمه دلائل مدلولات ترشده الى الملكوت السموي . . . بما أنه الكريم المَنَّان والرحيم الرحمن . وبعده فيقول الاب الفاضل والفيلسوف العالم

(١) المخطوطة تعود الى سنة ١٨٤٩ ، كما هو مذكور في آخرها .

العامل الأب الخوري بطرس بن بطرس التولاني ايكونوموس الملة المارونية بمدينة حلب والمصباح المشعشع في الأصقاع الشرقية الغير المحتجب . . .

بسم الله الخالق الحي الناطق إياه نحمد وبه نستعين .
في الايساغوجي أي مدخل المنطق .

إنه لما كانت سعادة الانسان من حيث هو ناطق موقوفة على معرفة الحق والخير . أمّا الحق لذاته . أمّا الخير فللعمل به . والروية الانسانية قد تعثر بها الزيف عن الصواب والميل الى الخطأ . فدعت الحاجة الى اعداد قانون صناعي يعصم الذهن من الغلط فيها . . فنقول إن هذا القانون الصناعي هو المنطق والحاجة اليه تأدي الذهن لدرك المجهولات من المعقولات وترتيب صورها وموادها . . .» .

ترى في النموذج الأول التقسيم نفسه الذي درج عليه تلاميذ المدرسة إلى مقالات وفصول . وقد حرصت على انتقائه في الرد على أوطيخا^(١) ، لأنّ مقارنة هذا المبتدع كان هاجس الكثيرين من الموارنة ، وقد واجه مذهبهم بعداوة شرسة .

وتصادف في هذا النص اضطراباً لغوياً ومعنوياً بحيث يصعب الجزم بحكم المؤلف على أوطيخا: أهو يوافق نسطور^(٢) أم يخالفه؟ ما معنى قوله «وسبب ذلك عناداً في نسطور»؟ أعني معاندته لنسطور أي مخالفته أم يعني مجاراته؟ يُخيّل للقارئ أن المقصود مجارة أوطيخا لنسطور، ولكن، لا يلبث النص أن يشير إلى قول أوطيخا بأقنوم واحد في المسيح، بينما المأثور عن نسطور اعتقاده بأقنومين فيه . فلغة هذا النص صورة لما يجره على المؤرخ ضعف تعبيره وأخطاؤه اللغوية .

(١) أوطيخا Eutychès (٣٨٨ - بعد ٤٥٤): راهب يوناني عاش في القسطنطينية . قال بوحدة الطبيعة في المسيح (مونوفيزية) . حرّمه المجمع الخلقيدوني (٤٥١) . اضطهد الموارنة وافتري عليهم افتراءات جمّة .

(٢) نسطور Nestorius (نحو ٣٨٠ - ٤٥١): ولد في قيصريّة سورية . بطريك القسطنطينية (٤٢٨) . قال بأقنومين في المسيح ، وأنكر على مريم لقب أم الله . حرّمه مجمع أفسس (٤٣١) .

النموذج الثاني، الذي كتب بعد الأول بأكثر من مئة عام، أرقى منه تعبيراً، وإن بقي فيه اضطراب في الأسلوب، واجترار، وحماسة، وبعد عن الموضوعية في النقاش. وربما تعدت الموضوعية المفاهيم السائدة قبل منتصف القرن الماضي.

يتحدث مطلع النص عن «جماعة المحامين عن الحق». ثم يعود المؤلف فيلفت الى نفسه ويقول: «فعندما أمعنا النظر»، والصحيح، لغوياً، أنعمنا النظر. وربما كان هذا المطلع جرياً على تقليد متبع في افتتاح المناظرات.

وبعد أن يذكر البطريك مسعد خصمه باحترام في قوله: «غبطة السيد مكسيموس مظلوم بطريك المليكين الكاثوليكين الكلي الطوبى»، يعود فيتهمه «بالتلفيق المشحونة تناقضاً وأموراً لا أصل لها ولا أساس صوابي». وكأنه عندما ذكر ادعاءاته أخذته الحماسة، فخرج عن طوره، وتخطى الاعتدال الذي بدأ به مقدمته.

وتجدر الإشارة الى وقوع البطريك مسعد في خطأ تعبري كاد يعكس قصده حينما قال: «بدون شك ويقين»، بدل أن يقول: «بدون شك وعلى يقين».

وهكذا، نستنتج أن المناظرات الموضوعية، البعيدة عن الحماسة والطعن، لم يكن قد تأذن عهدها بعد. أما اللغة فما زالت تبحث عن صفائها.

تبدأ فاتحة النموذج الثالث على الطريقة العربية المتبعة في افتتاح الكتب بلغة لا تخلو من تشذيب وتنقيح، يسيطر عليها النفس الديني المأخوذ من العهدين القديم (نفخته الآلهية) والجديد (السير على درب المسيح). وتستمد أحياناً روح الاسلام العربي (بما أنه الكريم المنان والرحيم الرحمن).

ويأتي وصف المؤلف وتبجيله ليرجح أن الفاتحة ليست من صنيعه. ويلفت فيها استعمال ايكونومس اليونانية بدل رئيس الكهنة، دالة على شدة تأثر الموارد بالبيئة الغربية التي انتقلوا اليها، ويظهر أثر الأفلاطونية في تعابير من أمثال «الغير المحتجب».

وقد تضمنت المقالة الأولى من الكتاب نمطاً تعبيرياً يذكر بفاتحة القرآن (بسم الله الخالق الحي الناطق إياه نحمد وبه نستعين).

والتفصيل المنطقي في الكتاب واضح على الاجمال، يضطرب أحياناً من حيث اللغة. يستعمل الكاتب تارة الفاء في جواب أمّا، ويهملها تارة أخرى. ويستعمل الفاء في جواب لَمّا بغير مسوّغ. ومع ذلك، تبقى اللغة على شيء من التطور، حريصة على توازن الجمل (والرواية الانسانية قد يعثرها الزيف عن الصواب والميل الى الخطأ)، إلا أنها لا تخلو من الأخطاء الإملائية كقوله «تأدي الذهن لدرك المجهولات»، واضعاً الهمزة على الألف بدل الواو.

وعدا تقسيم كتاب الايساغوجي الى مقدمة وأبحاث وفصول، نشاهد فيه طريقة حديثة في التأليف كأن يثبت المؤلف في أوّله «بيان الأحرف المختصرات في نفس هذا الكتاب» (ظه: ظاهرة - بط: باطل - مح: محال - إلخ . . .). والكتاب مرقّم من ١ الى ٢٦٦، يتقدّمه فهرس المحتويات، كما هي الحال في أيّامنا.

٤ - التربية والتعليم

التربية والتعليم من المهمّات الأساسية التي أنشئت من أجلها مدرسة رومية. أرادها البطاركة والحرر الأعظم لتعزيز الإيمان في نفوس الموارنة، وبناءه على الحقائق الروحية، بعيداً عن الكهانة والخرافات. كما أرادوها ليجعلوا من الموارنة منائر علم ومعرفة، ينشرونها في الناس، ومعها الأخلاق، ومبادئ الإيمان القويم.

يعود التلاميذ إلى بلادهم، فيبنون المدارس، ويحافظون على الاتصال الثقافي والديني بين لبنان والغرب، ورومية بنوع خاص. فكان لهم دور الريادة والطلية في هذا المجال. وأسهموا إسهاماً فعّالاً، ولا يزالون، في نشر الثقافة والعلم في مختلف أنحاء لبنان. وكثيراً ما أمّ مدارسهم تلاميذ من سائر الطوائف اللبنانية. وقد اصطفينا لهم نموذجين في هذه المادة:

١٠٤ - كتاب المعلم والتلميذ (خليط من الكتابتين الكرشيّة والعربيّة)
تأليف المطران اسحاق الشدراوي الماروني (١٥٩٠ - ١٦٦٣)

بخط الخوري جبرائيل خادماً كفرحي في بلاد البترون، وهو من البترون ويدعى الخوري جبرائيل ضو كتبه في شباط ١٨٢٦.

«كنت قلت لك يا معلم ان في القيامة الرجال يقومون رجال والنساء يقومون نساء قاصداً الآن اعرف منك ان كان يروحون للسماء رجال قدر ما يروح نساء ام اكثر من النساء. معلم اجيب واقل لك ايها التلميذ العزيز ان هذا الامر هو موضوع في سلطان وعلم الله تعالى وحده الذي الى يومنا هذا ما اجهره الى احد» (ص ٨٧).

وفي مكان آخر يخبر المعلم التلميذ عن المدن التي زارها: «ومنها لمدينة ريكاناتي ومنها لمدينة لوريتو وهناك هو بيت ستنا مريم العذرا. وفي هذه المدينة مكت (كذا) (أي مكثت) اربعة اشهر الشتي وذلك بسبب شدة الثلج والبرد الذي صار بتلك السنة. ولله الحمد خمسة امرار قدمت لهذه الموضع المباركت وحضيت في بركته وشفاعته. إلخ...» (ص ٩٢).

٢٠٤ - تفسير واسع على التعليم المسيحي الذي صنفه الاب الكردينال بالرمينو (٣٣٥ صفحة صغيرة).

مفسر ومطبوع بامر قدس سيدنا البابا اوربانوس الثامن والمجمع المقدس الذي على نشو الأمانة وتوسيعها على يد خوره يوحنا الحصريوني ترجمان ملك فرنسا المسيحي بلسان العربي والسرياني سنة ١٦٧١

«بسم الاب والابن وروح القدس الاله الواحد الازلي
نبتدي بايضاح تعليم قواعد دين المسيح مهم لمنفعة اوليك الذين يعلمون الاولاد وناس اخرين امية جهال بنوع متكلمه بين تلميذ ومعلم مؤلف لابينا المختار العالم الكردينال روبرطوس بلارمينو. مفسر من لسان الافرنجي الى العربي لخوري يوحنا الحصريوني الماروني بامر قدس سيدنا الطوباني بابا اوربانوس الثامن الجالس على كرسي العظمة كرسي ماري بطرس وبعناية السادات الكرديناليه المكرمين المتولين على مجمع توسيع وانتشار الايمان الحقيقي...» (ص ٩).

الفصل الأول

أي شئ هو العلم المسيحي وما هي اجزاه الخصومية
تلميذ. فلاني اعلم انها واجبه معرفة العلم المسيحي للخلاص ارغب ان تشرح
لي وتفسر ما هو هذا العلم.
معلم. العلم المسيحي هو موجز وكلام مختصر على كل شئ علّمنا اياه السيّد
المسيح حتى يرينا طريقة الخلاص.
تل. أجزاء هذا التعليم الأخصّ والواجب كم هيّ.
مع. هي اربعة: قانون الايمان. والصلاة الربانية. والعشر وصايا. وسبعة اسرار
البيعة.

تل. لاي سبب هي اربع لا زايده ولا ناقصه.
مع. لاجل ان ثلاث هي الفضائل الخاصّة. اى الامانة والرجا والمحبة. . . .
النموذج الأوّل هو مجموعة آراء لاهوتيّة، وأخبار سياحيّة تقوم على حوار
بين تلميذ ومعلّمه. وهو من تأليف القرن السابع عشر، خليط من الكتابتين
الكرشونيّة والعربيّة. وهذا النمط من التأليف كان معروفاً في الغرب، وقد عرفه
المشرق مع الفلاسفة المربيّين القدامى كالغزالي في رسالة «أيها الولد»، وابن
طفيل في رسالته «حي بن يقظان»، وغيرهما.

تتخذ لفظة معلّم، هنا، معناها الأصيل. وفي نداء التلميذ «يا معلّم»
شميم من مخاطبة الرسل للسيّد المسيح. وتأخذ، أحياناً، أسئلة التلميذ طابع
المماحكة والتعجيز، ما يذكر بفتاوى المسلمين الأوائل للمعضلات الناشئة عن
مواقف طارئة مفاجئة. أمّا المعلّم، فيقف عاجزاً عن الجواب ويصرفه الى الله
تعالى، كما كان يلجأ علماء العرب في مثل هذه الحال الى قولهم «والله أعلم». .
وهو موقف أقرب إلى العلم من التكهن والإجابة العشوائية.

وفي أخبار المعلّم السياحيّة إنماء لثقافة التلميذ، وموعظة له بارتياح
الأماكن المقدّسة والتبرّك بها.

وأسلوب هذا النموذج أقرب إلى العاميّة منه الى اللغة الفصيحة، ولكنّه
مقبول ومحمود ممّن ينتقل إليه من السريانيّة. والفائدة فيه مخصوصة بالمعاني

الجديدة التي يفتقر إليها الساعون الى المعرفة والثقافة، والى الانتقال باللغة العربيّة من العناية باللغة والاساليب الإنشائيّة الى العناية بالموضوعات الجديدة وما ينقص الرائد منها.

النموذج الثاني مكتوب بالحرف العربيّ، ولا يتميّز بلغته وأسلوبه عن النموذج الأوّل، ما يجعلنا نستنتج أنّه كان الأسلوب اللغويّ المتّبع، آنذاك، في كتابة تلاميذ مدرسة رومية. وأسلوب مقدّمة الكتاب شبيه بأسلوب الفصول، ما يعزّز حجّتنا في تعيين الأسلوب الكتابيّ المعهود.

ونمط التّأليف متشابه بين النموذجين، والأسئلة والأجوبة متتالية بين التلميذ ومعلّمه، تبتدئ من الأبسط الى الأعمق، ومن التعميم الى التفصيل. واذ كان هذا الكتاب من تّأليف كردينال إيطاليّ، أمكننا القول إنّ تلاميذ مدرسة رومية أخذوا هذا النمط من التّأليف عن معلّميهم الغربيّين، أكثر مما توكّأوا فيه على الكتب العربيّة القديمة.

٥ - القوانين والعقود

أفاد تلاميذ المدرسة المارونيّة إفادة كبيرة من أساتذتهم في تنظيم القوانين والعقود. وحملوا هذه الأساليب الى بلادهم، وهي طرائق جديدة فرضتها شؤون الحياة الحديثة بما فيها من اتّساع التعامل، وتشعّبه وتعقيده. فكان قانون مدرسة عين ورقة مثلاً نسخة عن قانون المدرسة المارونيّة الرومانيّة^(١). ومازلنا حتى اليوم نستوحي قوانيننا من الغرب، وخصوصاً من فرنسا. أليس ذلك من تأثير المواردن الذين تميّزت كتاباتهم القانونيّة بالدقّة والوضوح والتفصيل والشمول؟ وأثبت، من بعد، نموذجين، أحدهما في القانون والثاني في العقود:

١٠٥ - القوانين والرسوم الرهبانيّة، رومية ١٧٣٥، قطع وسط، عدد الصفحات ١٨٠ لاتينية و ٢٦١ عربيّة (مكتوبة بالحساب الأبجدي رس ا)، باللغة العربيّة (حرف كرشوني) مع ترجمة لاتينيّة (خط إبراهيم الحاقلاني).

(١) راجع مجلة المنارة، ١٩٨٤، ص ٥٧ - ٦٦ و ٢٨٢ - ٢٨٧ للمقابلة بين القانونين.

«الباب الحادي عشر [صفحة ١٠٩ - ١١٠ (ق ط - ق ي)]»

في الأب الروحي

أولاً: يلزم في كل دير تعيين أب روعي يتقيد بوظيفته وهي استماع اعترافات الرهبان والاحتراض في نموهم الروحي . . .

سادساً: ولْيَهْتَم اهتماماً خصوصياً في تعزية المحزونين والمتضايقين ونصح الفاترين بتقديم الأدوية المناسبة لشفاء أوجاعهم وهي غالباً هذه: أن يواظبوا سِرِّي الاعتراف والقربان الأقدس. وأن يصرفوا زماناً أكثر من غيرهم في الصلاة. وأن يُقَوِّنُوا ذواتهم أكثر من الآخرين ويقرأوا بعض كتب روعيّة مختصة بعلاج دوائهم وما أشبه ذلك . . .»

٢٠٥ - عقد إنشاء مدرسة عين ورقة سنة ١٧٨٩ :

«الداعي لتحريره هو أني انا الحقير في الروسا^(١) المدون اسمي بخطي وختمى اعلاه سريانياً وبذيله عربياً قد خصصت وعينت ووقفت بشور أخي المطران بولص اسطفان وابن أخي الخوري إبراهيم اسطفان ورضاهما جميع ارزاق ديرنا المعروف بمار انطونيوس عين ورقه الثابتة والغير الثابتة وكل عماره واتاته وحقوقه واستحقاقاته وكافة ما يعرف به وينسب اليه من توت وكروم وارضى مزروعة وغير مزروعة وسايقه ومواشى الى خير الطايفة العام اعني لكي يقام فيه مدرسة أولاً لتربية الاولاد بخوف الله والعبادة وحفظ طقوس رتبنا المارونية الانطاكية المقدسة منذ حداثة سنهم ثانياً ليرتشدوا بالعلوم المقدسة أولاً النحو السرياني والعربي ثانياً الفصاحة. إلخ . . .»^(٢).

لم يكتفِ المشتري في النموذج الأول بكتابته باللغة العربيّة، بل، لمزيد من الدقّة، وضع الى جانبها ترجمة لاتينيّة. وهو أمر متبع في كثير من القوانين والاتفاقات العامة.

(١) البطريرك يوسف اسطفان (١٧٦٦ - ١٧٩٣).

(٢) مجلة المنارة، ١٩٨٤، ص ٢٧٦ - ٢٧٩. وفي آخر العقد واحد وخمسون ختماً وتوقيعاً للبطريرك يوسف اسطفان والخوارنة والمشايع وأصحاب الحقوق.

التقسيم واضح ، واللغة سهلة قليلة الاضطراب والخطأ . وهو أمر طبيعي إذ إن النصوص القانونية ، بحكم توجهها واستعمالها ، لا تقبل الزيف والإبهام . ومع ذلك ، يبقى الأسلوب بحاجة إلى كثير من العناية والتصويب . فابتداء النص «يلزم في كل دير تعيين» هو أسلوب ركيك . وأن المصدرية واجبة قبل فعل يتقيد . والتعبير «الاحتراس في نموهم» ضعيف . وحرف الجر «على» واجب بعد «يواظبوا» . والأفصح تعريف كلمة كتب في قوله «بعض كتب روحية» .

وفي النموذج الثاني حرص البطريك يوسف اسطفان على تدوين اسمه باللغتين العربية والسريانية ، ووضع ختمه في ترويسة العقد وفي نهايته زيادة في الدقة والترقب . وأكد تخصيصه أرزاق الدير لخير الطائفة العام بفعلين بمعناه (خصّصت وعيّنت وأوقفت) منعاً لكل مراجعة أو التباس . وحرص على ذكر مشورة أخيه وابن أخيه لكي لا يترك لهما مجالاً للدّعاء بحقوقهما في يوم من الأيام . وفصل ما أوقفه للمدرسة تفصيلاً كاملاً بحيث لا يُبقي مجالاً لأي استثناء .

ولم يفته إثبات ما أنشئت المدرسة من أجله بالتفصيل وكأنّه يضع لها قانوناً في نصّ العقد نفسه ، لكي لا يحصل في المستقبل أيّ سوء استعمال ، وأيّ استغلال منافٍ لعلّة إنشائها .

وفي اخر العقد واحد وخمسون ختماً وتوقيعاً للبطريك والخوارنة والمشايخ واصحاب الحقوق تقدّم هي الأخرى دليلاً قاطعاً على تطوّر النصوص القانونية وإحاطتها بكل القيود والتحفظات التي فرضتها العلوم الغربية الحديثة ، بعيداً عن المعاملات الطبيعية المرتجلة التي كان يكتفي بها الناس في تجمّعاتهم البسيطة الماضية .

٦ - التاريخ

قدّم جرجي زيدان للتاريخ والمؤرخين في العصر العثماني بقوله : «أصاب التاريخ في هذا العصر ما أصاب سائر الآداب من الضعف والركاكة» . وذكر من تلاميذ المدرسة المارونية يوسف شمعون السمعاني (١٦٨٧ - ١٧٦٨) بمؤلفيه «المكتبة الشرقية» التي طبعت برومية في أربعة مجلّدات

(١٧١٩ - ١٧٢٨). و«أصل الرهبان في لبنان» الذي طبع في المدينة نفسها سنة ١٨٤١^(١).

لقد عدّ زيدان التاريخ في قوله السالف من الموضوعات الأدبية وهو كذلك عندما يذكر فيه أمثال طاش كبري زاده (١٤٩٥ - ١٥٦١) صاحب «الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية» و«مفتاح السعادة ومصباح السيادة»؛ وحاجي خليفة (١٦٠٨ - ١٦٥٧) صاحب «كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون»^(٢).

وكان التاريخ من الموضوعات الموفرة الحظّ الكثيرة الانتاج، تندرج تحته شعب ثلاث: سرد الأحداث، وتاريخ المدن، وسير الرجال^(٣). ولكنّ قيام المدرسة المارونية في رومية، وهي من الغرب في الصميم، كياناً وحضارة، مهدّ لتلاميذها الإفادة من المناهج الغربية القائمة على الموضوعية، والتبحر، والربط، والتحليل، والاستنتاج، وإن بقي لمؤرّخيهم صلة دائمة بمهدهم المشرقي^(٤).

وقد اخترت نموذجين، أحدهما لمؤرّخ هاو، إذا صحّ التعبير، هو إبراهيم الحاقلائي (١٦٠٥ - ١٦٦٤)، والثاني لمؤرّخ محترف هو البطريرك اسطفان الدويهي (١٦٣٠ - ١٧٠٤).

١٠٦ - نص إبراهيم الحاقلائي^(٥)

«في سنة الف ستمائة وعشرين يومين بعد عيد الغطاس وصلنا الى مدينة رومية نحن الحقيّرين مع الاب النقي الشريف الخوري ابراهيم من قرية

(١) تاريخ آداب اللغة العربية، ٣٠٦/٢ و ٣٢١ - ٣٢٢.

(٢) المرجع نفسه، ٣٣١/٢ - ٣٣٣.

(٣) أسامة عانوتي، الحركة الأدبية في بلاد الشام، ص ١٩٧.

(٤) راجع دراسة للدكتور الياس القطار بعنوان: أثر الغرب في منهجية وفكر الدويهي على صعيد كتابة التاريخ، في مجلة المنارة، ١٩٨٤، ص ١٢٧ - ١٣٨.

(٥) النص بحوزة الأب ناصر الجميل مترجم الى الفرنسية في كتابه *Les Echanges Culturels entre les maronites et l'Europe*, pp. 62 - 63.

عميتورين ومع جوان بطشتا الافرانجي وكنا ستة اي يعقوب السرعلاني وهذا بعد ستة سنين صار ايسوعي وبعد شهر خرج وبعد علاج كثير رجع للمدرسة ووقف حول ستة اشهر ورجع للبلاد وصار له محن في البندقية . . . وسنة الف وستمايه وخمسه وتلاتين راس السنه والشهر المطران ايسمعان الشدراوي وجاب معه اولاده اتينهو ودخلوا الى المدرسه الى الى مدرسه الموارنه في مدينه روميه المعظمة. الخ . . .»

٢٠٦ - نص البطريك اسطفان الدويهي^(١)

«انشاء مدرسة حوقا والبطريك يوحنا مخلوف. تهنة البابا اوربانوس وجوابه للسيد البطريك. الاسقف حنا الحصريوني:

وفيه (أي السنة المذكورة) اقام البطريك يحنا مدرسة لعلم الاولاد في دير سيدة حوقا ليتأدبوا بها الاولاد الذين يدخلون الى مدرسة رومية والذين يعاودون منها. وعندما تسلم تدبير الكرسي الروماني البابا اوربانوس الثامن، ارسل له البطرك مكاتيب التهنة مع القس حنا ابن قورياقوس الحصريوني المعروف من بيت سندوق (صندوق) الذي مع القس جبرائيل ابن صهيون الهدناني ضبط ترجمانية اللغات الشرقية عند حضرة سلطان فرنسا. فترحب به قدس البابا وبعث معه للبطرك يحنا تاجاً جميلاً وكتباً وعداداً لأجل خدمة الاسرار المقدسة ورسالة يمدح بها ديانة الملة المارونية، ويتشكر بها من غيرة البطرك في بنيان المدرسة في دور حوقا لأجل تعليم الاولاد، وعين لها علوفة سنوية».

النص الأول إخبار بأمور شخصية سجل فيه إبراهيم الحاقلائي خبر ذهابه وخمسة رفقاء له الى رومية، ومصير كل منهم.

لغة الحاقلائي عربيّة، وإن خرجت عنها متأثرة بالعاميّة اللبنانيّة. إنّها لغة الحديث مطوّعة للقلم بكل بساطة، بعيداً عن هاجس التنميق والتزييق. إنّها لغة مسيحيّ مارونيّ سريانيّ غير متدرب بلغة القرآن نموذج المسلم الأرقى، خصوصاً في تلك الأيام.

(١) تاريخ الأزمنة، ص ٤٩٢.

والمخطوطة التي أخذت عنها هذا المقطع تتضمن حواشي سريانية أو كرشونية قديمة على الورقة الأولى ومقلوبة على الثانية، وليس فيها محو، أو شطب، أو تصحيح في الكتابة، ما يدل على كتابة فورية بيد جامدة، أو إنها كتابة منقولة بغير روية أو تشذيب. فإن إلى، مثلاً، تتابع مرتين في قوله «إلى إلى مدرسه الموارنة».

ليس في مخطوطة الحاقلاني من التاريخ سوى السرد الخبري، والتفصيل، والدقة في تعيين التواريخ. وهي تفيدنا، اليوم، في معرفة بعض شؤون تلاميذ المدرسة المارونية، وما قاسوه في ذهابهم، وإيابهم، ومكوّنهم في البلاد الغربية، كما تفيدنا، بلا شك، في معرفة بعض أساليب الكتابة آنذاك، ما يؤيد حكم جرجي زيدان عليها بالضعف والركاكة، وذلك نسبة إلى القواعد العربية الثابتة. ونحن نرى فيها فائدة بالكتابة والتدوين في زمان كانت الأمية متفشية، عندنا، بين أكثر الناس.

ولا يختلف نصّ البطريك إسطفان الدويهي اختلافاً كبيراً من الناحية اللغوية عن نصّ الحاقلاني. إلا أننا، ههنا، إزاء مؤرّخ محترف، يؤرّخ حدثاً مهماً في تاريخ التربية اللبنانية. إنه حدث مختار، معروف الفائدة. ولا ننتظر من الدويهي تدرجاً يصل إلى التأريخ الحديث بكل عدته، ومناهجه، ومفاهيمه. إنه ما زال من الكتاب الإنسانيين الذين لم يبلغ التأريخ عندهم مرتبة العلم الخالص. إنه يتوقّف بمهابة واحترام أمام «تهنئة البابا أوربانوس وجوابه للسيد البطريك».

إنّ علاقة البابا بالموارنة وبطريركهم على الأخصّ كانت موضع اهتمام، وربما شغف، من قبل رؤساء الموارنة وكتّابهم منذ عهد قديم كانت المراسلات والاتصالات فيه لشكوى اضطهاد، أو ردّ تهمة، أو دليلاً على أنّ المارونية مذهب كاثوليكي لا يرقى إليه الشكّ. فهدية البابا ترتدي طابعاً خاصاً عند رأس الطائفة المارونية.

ونصّ اسطفان الدويهي مكثف بالأخبار المهمة: فضلاً عن إنشاء مدرسة حوقا (١٦٢٤) وهدفها، نعرف منه أنّ جبرائيل الصهيوني الاهدني كان ترجمان

اللغات الشرقية لدى ملك فرنسا، وأن البابا أثنى على المذهب الماروني، وأعان مدرسة حوقا إعانة مادية.

ومع وضوح الدويهي وبساطة تعبيره، نجد عنده، أحياناً، تعقيداً في التعبير، إذ يستعمل جملاً كقوله: «وعندما تسلم... حتى سلطان فرنسا».

ولا نحاسب الكاتب حساباً عسيراً على أخطاء اللغة، وقد صرف اهتمامه الى المعنى، وكتب كتابه، أصلاً، بالحرف الكرشوني. ولا شك في أن الكتابة السريانية، وما تعلمه تلاميذ المدرسة المارونية من اللغات الأجنبية، أثر في لسانهم العربي، ومنعهم من التفرد بالعربية، والاقتصار عليها، وممارستها قراءة وكتابة وأصولاً. وما فتى المجتمع الماروني، يومذاك، يرى في اللغة العربية الفصحى لغة غريبة على لسانه، بعيدة عن سليقته، وعن دينه، وعن مصطلحات بيئته القروية وأعرافها.

ومع ذلك، فالانطلاقة المارونية العفوية في التعبير أسهمت إسهاماً فعالاً في تخفيف اللغة العربية من أنقالها البيانية البديعة، ووجهتها نحو الأصالة الذاتية والحرية المطلقة المستمدة من طبيعة الجبل اللبناني، وبساطة عيشه.

٧ - الشعر

لم يغزر الشعر العربي على السنة تلاميذ المدرسة المارونية كما غزر الشر، لأن الشعر ينطلق من الوجدان بغير تكلف وافتعال، بل هو يفور فوراً حاملاً معه تصاريف المعاناة. ووجدان الموارنة في بدء نهضتهم كان وجداناً سريانياً متصلاً بلغتهم الأم أي اللغة اللبنانية اليومية التي انطلقت من السريانية الى خليط عربي سرياني، الى عربية متأثرة بالسريانية.

لم يرجعوا بشعرهم الى الخليل بن أحمد، كما لم يرجعوا بلغتهم الى سبيويه. كان في ضميرهم مار أفرام السرياني، وإن تعدّوه في الزمان الماضي، فإلى مزامير داود ورؤيا يوحنا، وإن تجاوزوه في الزمان الآلي، فإلى تراتيلهم وأناشيدهم الكنسية التي نظمها رؤسائهم الروحانيون. الموارنة شعراء في صلواتهم. صلواتهم شعبية قريبة من نفوسهم. يخاطبون المسيح والعدراء والقديسين بلغة قريبة الى لغتهم اليومية، لا تكلف فيها ولا تصنع. يتشنون